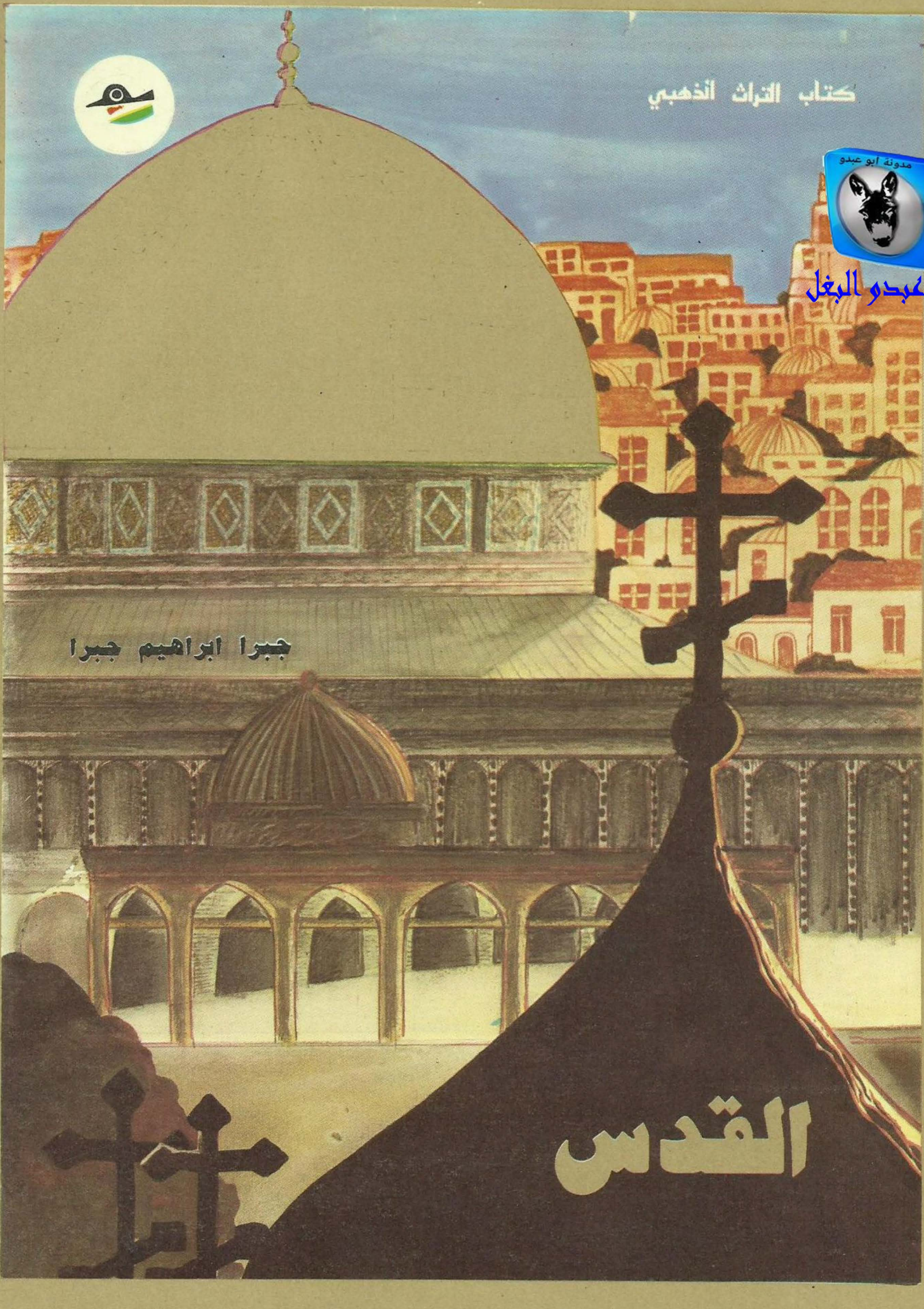

كتاب التراث الذهبي
جبرا ابراهيم جبرا
القدس

مكتبة الطفل

كتاب التراث الذهبي

دار ثقافة الاطفال - ص . ب «١٤١٧٦» - بغداد
تلكس «٢٦٠٦» - هاتف : «٧٧٦٠٦٢١»
Children's Culture House-thakafa-IK-TLX 2606
BAGHDAD-IRAQ

المدير العام رئيس مجلس الادارة : فاروق سلوم
سكرتير التحرير : شفيق مهدي

رقم الايداع في المكتبة الوطنية ٤٨٦ ببغداد لعام ١٩٨٦
توزيع : الدار الوطنية للتوزيع والاعلان

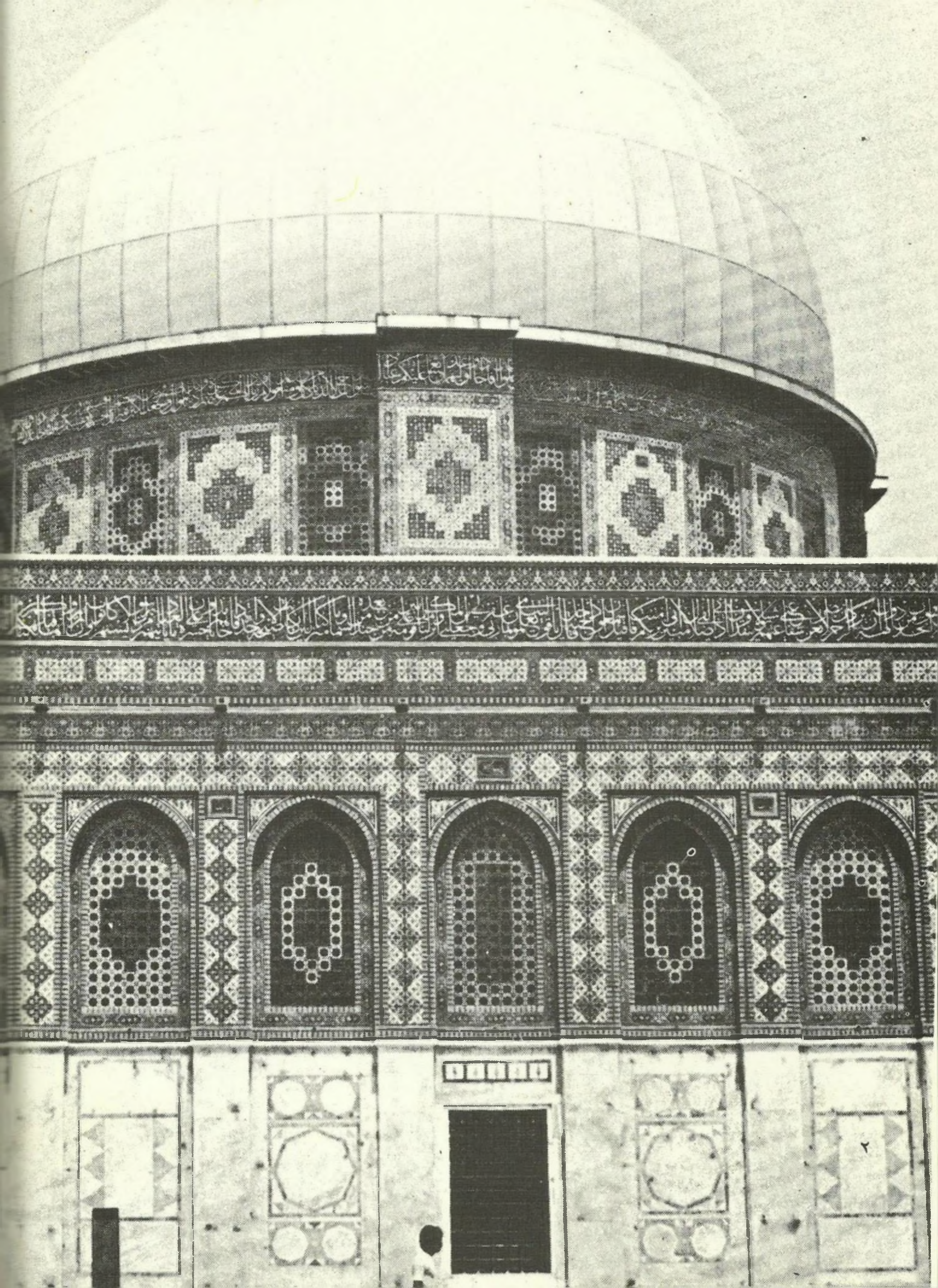
ثمن النسخة خارج العراق : ٣٥٠ فلساً او ما يعادلها

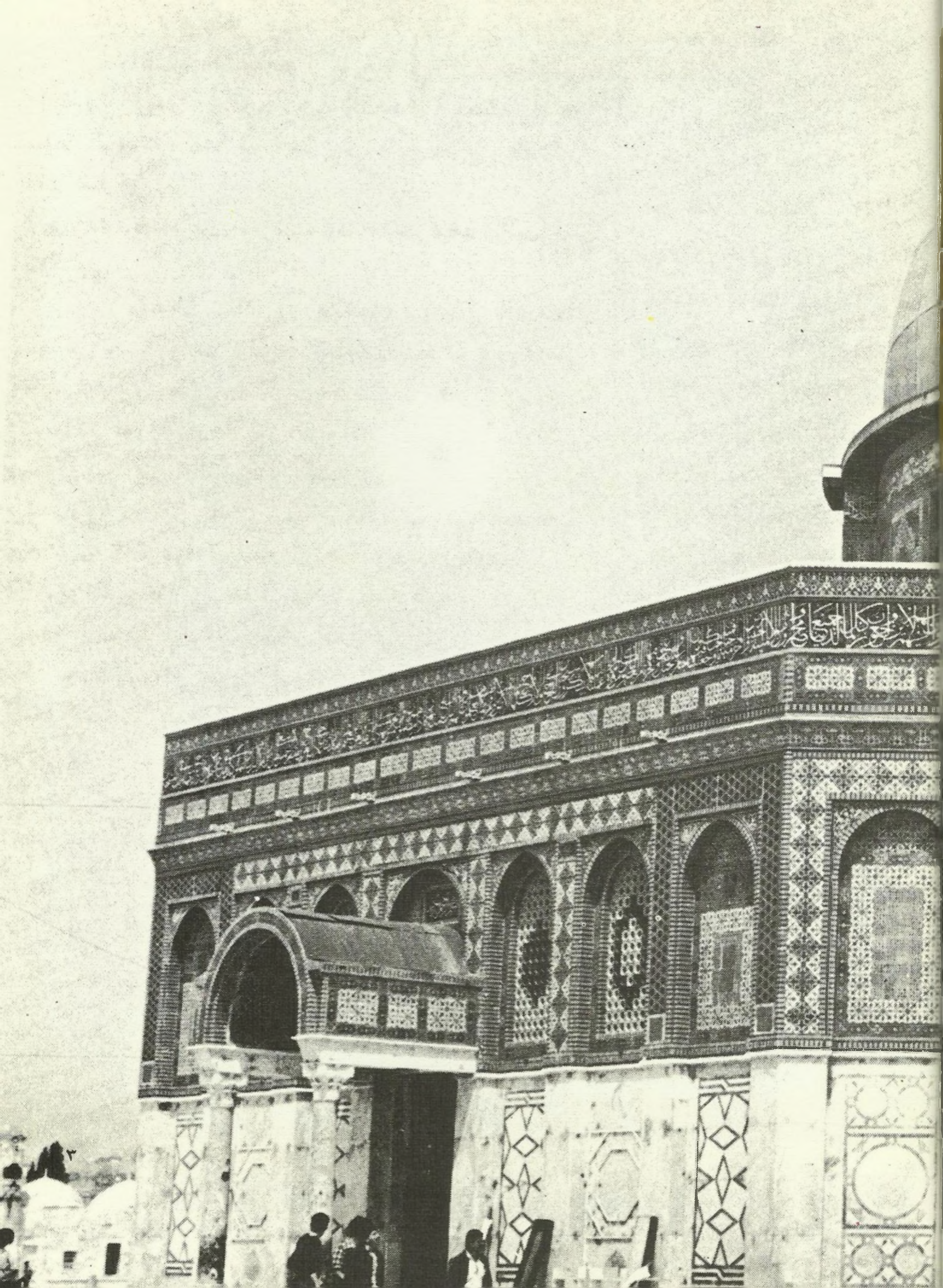
كتاب التراث الذهبي

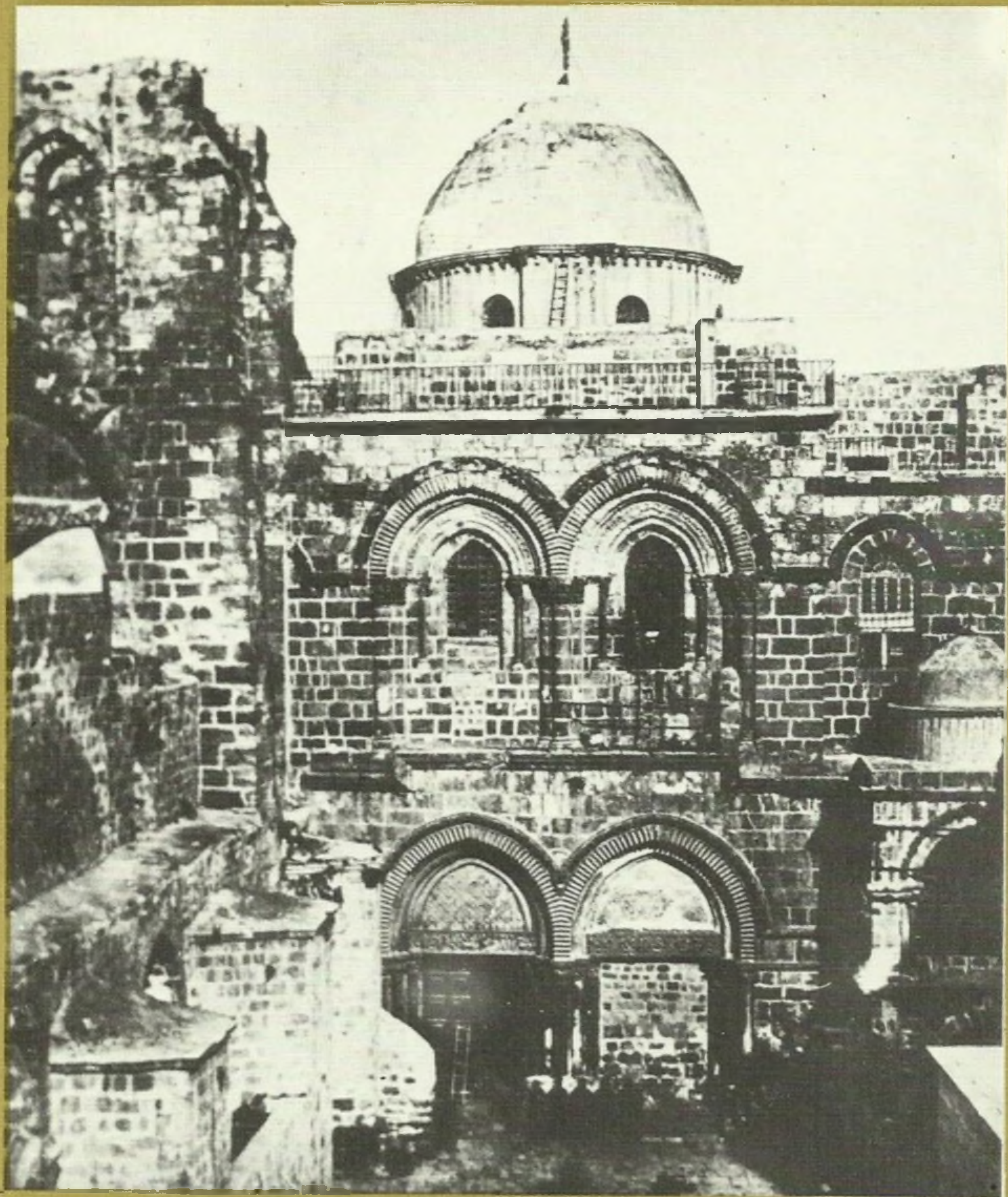
القدس

تأليف : جبرا ابراهيم جبرا

الاخراج الفني : طلال سعيد







مدينة «القدس» ليست مجرد مكان ، انها زمان ايضا ، فهي لا يمكن ان ترى بوضــوح ضمن نطاقها الجغرافي المحدود وحسب ، لانها حينئذ لن تفهم .

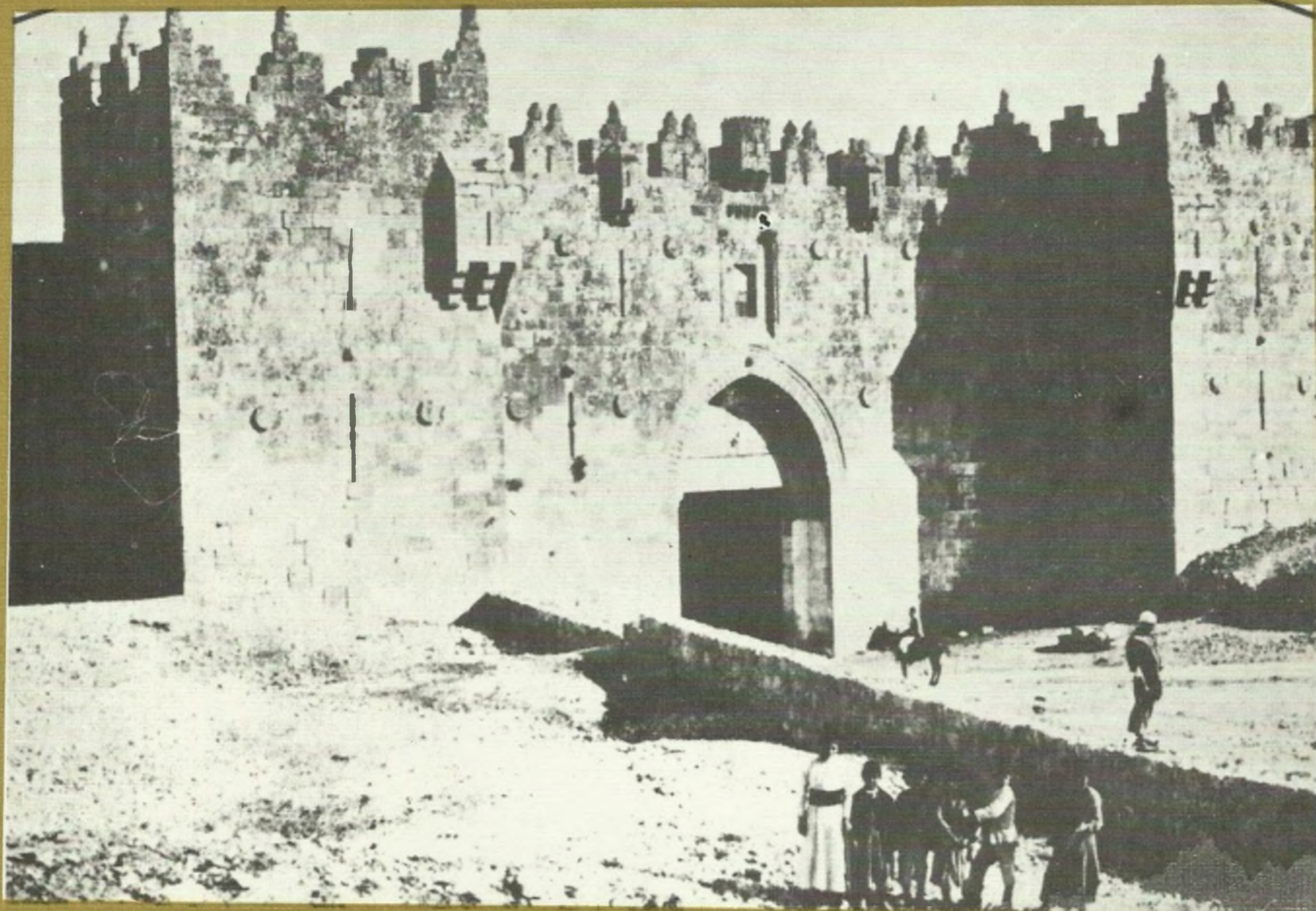
انها يجب ان ترى في منظورها التاريخي ، وترى كأن تاريخ اربعة الاف من السنين ، اجتمع في لحظة واحدة ، هي اللحظة التي يراها المرء فيها . في هذه المدينة التاريخ حي ، ينطق به كل حجر .. انه تاريخ مليء بالتناقض، مليء بالفجيعة ، ولكنه ايضا تاريخ مدينة عشقتها البشرية جمعاء ، لانها لم تكن يوما مجرد مدينة مكانية من حجر وطين وتجـارة وسياسة .. لقد كانت دوما مدينة الحلم والتوق ، وتطلع النفس البشرية الى الله .



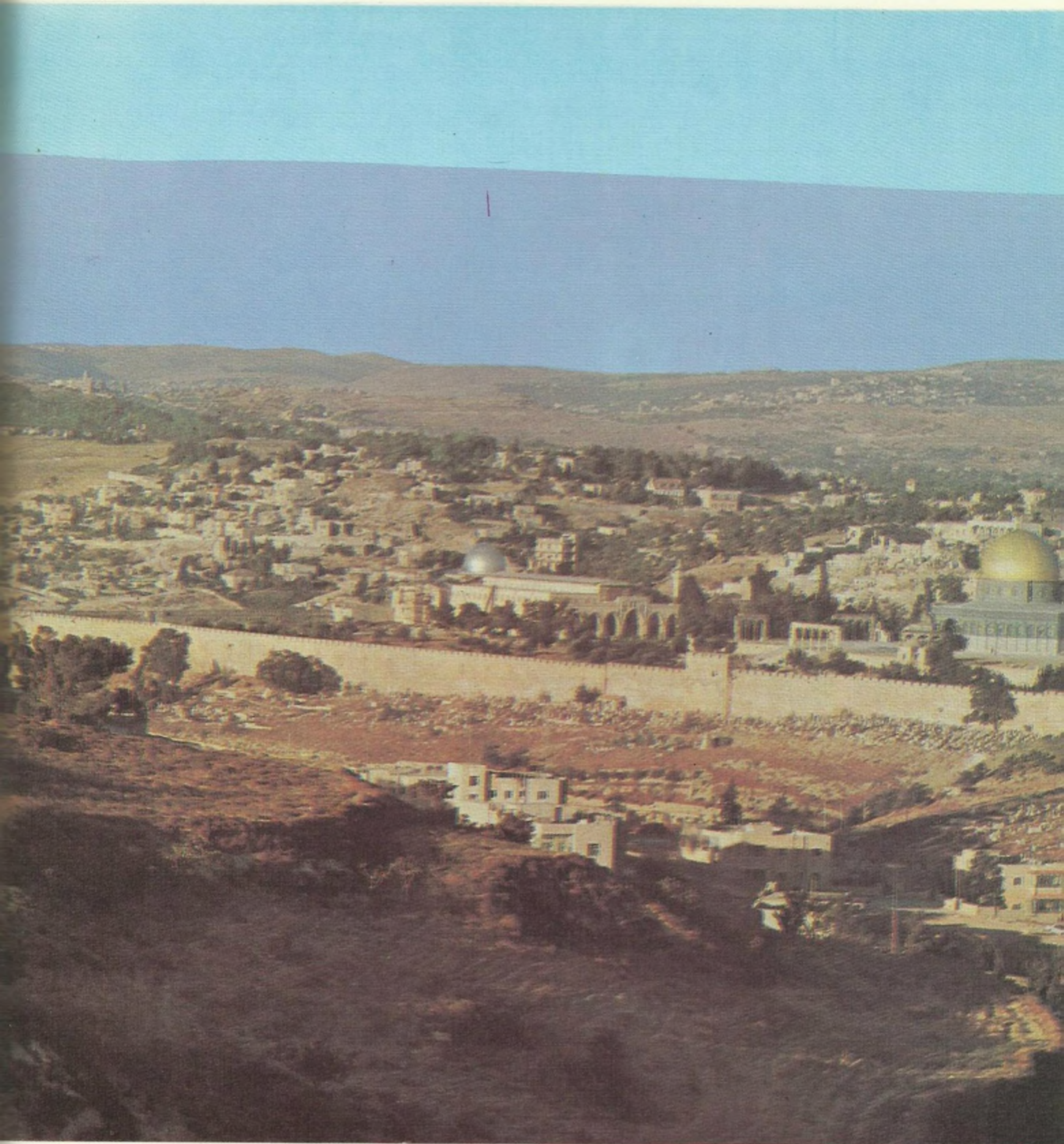


لقد وقفت شامخة على جبل ، تنظر الى البحر من جهة ، والى البادية من جهة اخرى . وبين جدرانها جمعت بين معاني البحر ومعاني البادية قوتين حضاريتين في تفاعل ابدي ، وفي هذا التفاعل سر مأساتها وسر عظمتها معا .

لئن كانت القدس في الاصل ، حتى اواخر القرن التاسع عشر ، هي المدينة المسورة بأبوابها السبعة ، فانها بدأت تفيض الى ما خارج الاسوار ، منذ اكثر من سبعين عاما ، بحيث اخذت تتصل شيئا فشيئا بالضواحي المحيطة بها من جهاتها الاربع . وقد اخذ هذا التوسع بالازدياد ، بعد هدم قسم من السور عند باب (الخليل) عام ١٨٩٨ ، فكان ذلك تحقيقا للاتصال العضوي بين امتدادات المدينة وقسمها المسور .



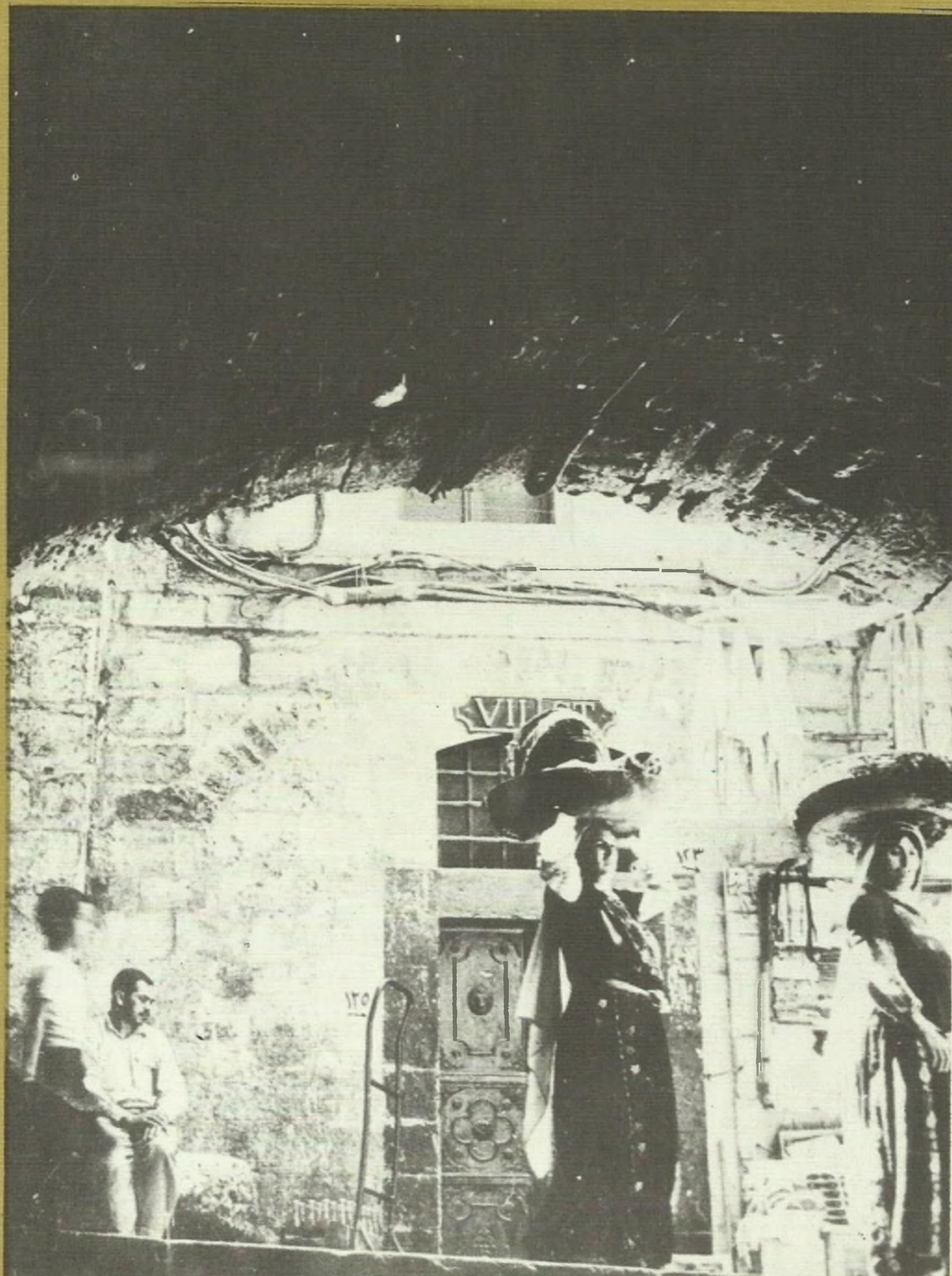






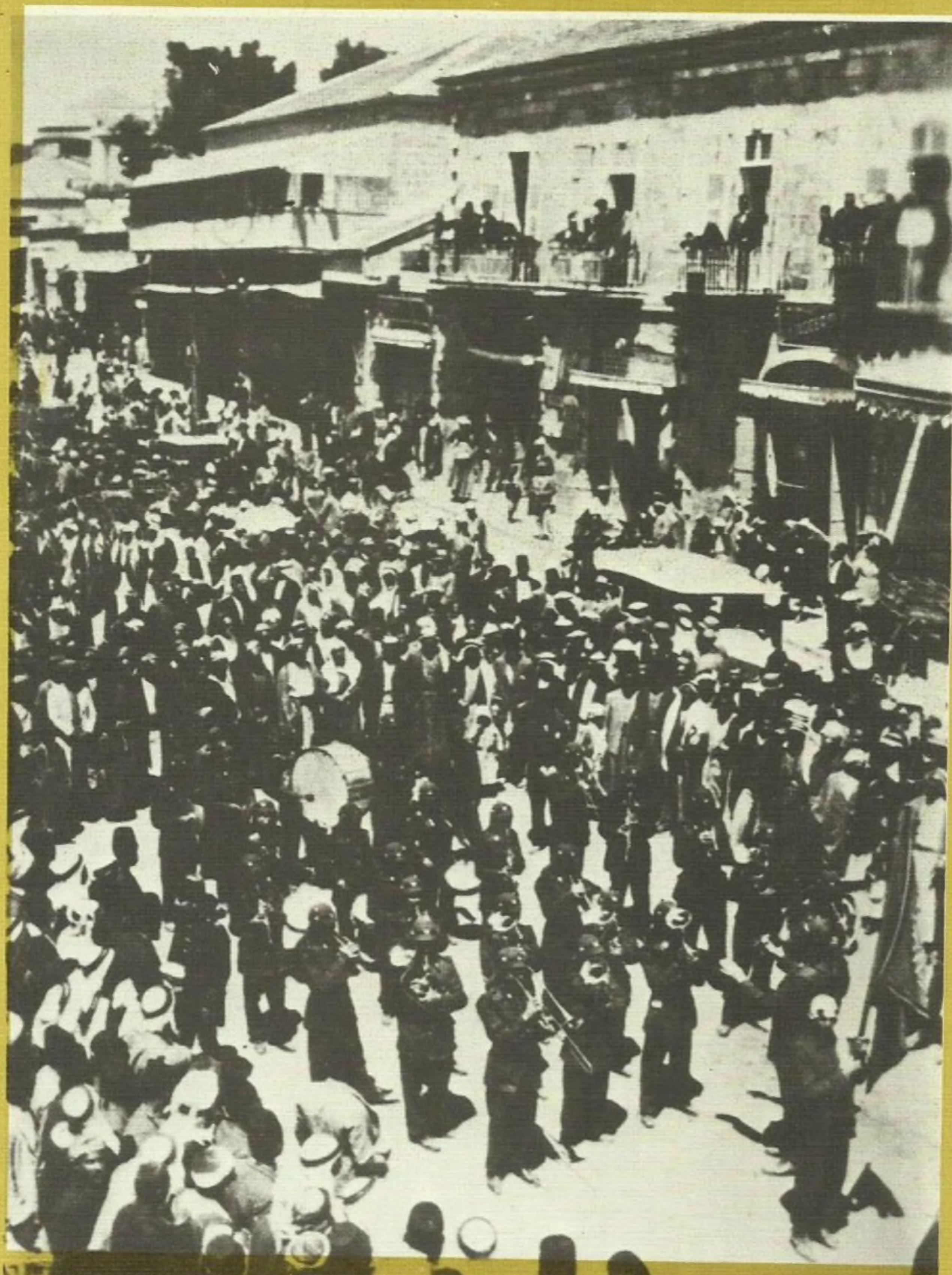
كان اقدم امتداد للمدينة خارج السور ، يتمثل في محلة النبي داود ، جنوبي المدينة ، وهي تعود الى بضعة قرون مضت . غير ان امتداد المدينة الاكبر جعل يتكامل بين ١٩٢٠-١٩٤٨،الى الشمال والغرب والجنوب ، في آن واحد .

هنا نشأت اجزاء (القدس) الجديدة ، امتداداً من شارع (يافا) من جهة ومن جهة اخرى امتدادا من شارع (مأمن الله) ومقبرة (مأمن الله) وشارع (القديس يوليان) .. وبذلك اقيمت الصلات المباشرة بين المناطق المتباعدة من (القدس) الجديدة وبين البلدة القديمة نفسها .



وقد كانت مناطق (البقعة الفوقا) و (الطالبية) و (القطمون) ، منذ اواسط القرن التاسع عشر حتى اواخر عشرينات هذا القرن ، اماكن نزهة واصطياف لاهالي (القدس) يملكها افراد من (القدس) و (بيت لحم) .





غير ان هذه كلها في الثلاثينات .. كانت قد خططت وتم عمرانها ضمن رقعة فسيحة واحدة ، تحيط بالمدينة المسورة من معظم نواحيها ، وبذلك تم نشوء (القدس) المعاصرة بشقيها القديم والجديد . وعلى هذا النحو في خلال سنوات قلائل ، تحولت المناطق الصخرية المتباعدة البيوت ، المزدحمة باشجار الزيتون ، الى احياء جميلة ، حجرية المباني ، كثيرة البساتين ، عصرية التخطيط .

واول ما يجب ان يقوله المرء عن (القدس)،هو انها مدينة عربية عريقة في عروبتها ، رغم ان الصهاينة احتلوا نصفها الجديد عام ١٩٤٨،فنصفها الجديد المحتل ، عربي عروبة نصفها القديم ، وعروبة بقية (فلسطين) المحتلة .





وعندما يتحدث احد ابناء (القدس) عن مدينته ، يستحيل عليه ان يجعل الكلام يقتصر على المدينة المسورة وما نشأ حولها من بناء وتوسع ، في فترة ما بعد النكبة ، فالقدس بارجائها كلها ، وحدة عضوية،من اللامنطق ان تشطر هذا الشطر المجرم . وما شطرها



على هذا النحو الحالي ، الا صورة مصغرة للخرق العقلي ، الذي اجتزأ جزافا قسماً من (فلسطين) لليهود . وبالرغم من مرور الاعوام على هذا الظلم،فان المقدسي★ لن يستطيع ان يتصور مدينته دون النصف المحتل ، بأحيائه العربية ، ومنازله العربية ولونه العربي .

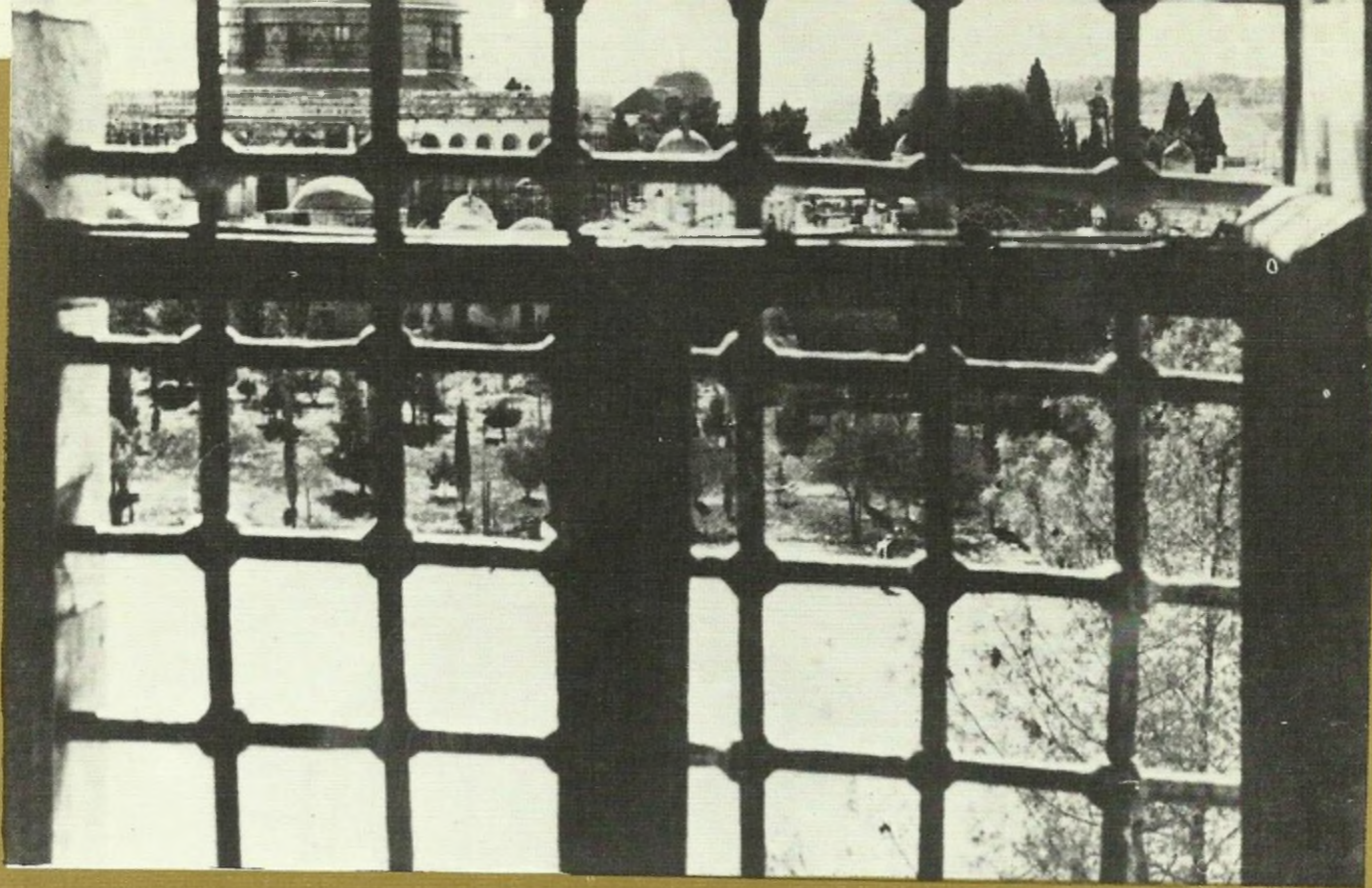
★ المقدسي : نسبة الى بيت المقدس اي كل من سكن مدينة القدس .

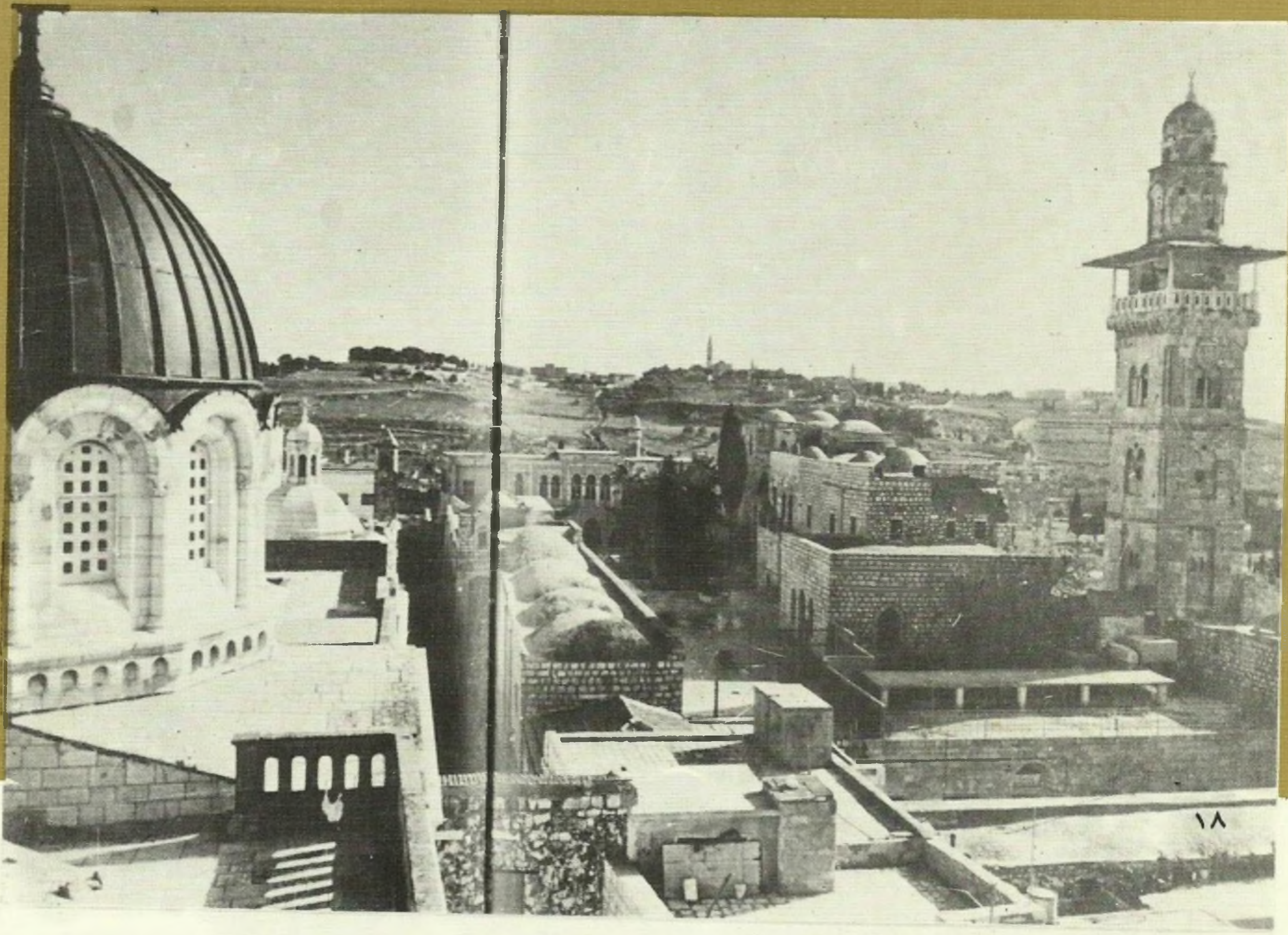


لقد بلغت المدينة في اوائل عام ١٩٤٧ اقصى توسعها ورونقها ، غير ان الارهابيين اليهود كانوا قبل ذلك بثلاث سنوات ، قد بدأوا في تدمير (القدس الجديدة) وفق خطة وحشية : فبدأوا اولا بنسف المقرات الحكومية ، الواحد بعد الاخر . وكان من اشهر الاماكن التي نسفوها على من فيها،جناح السكرتارية العامة للحكومة ، في (فندق الملك داود).وبعد اعلان التقسيم في تشرين الثاني عام ١٩٤٧ ، اخذوا ينسفون منازل العرب ليلاً، ولا سيما في حي (القطمون)،الذي كان مجاوراً لحي (رحافيا) اليهودي ، ارهابا للسكان ، ودفعا اياهم على الهرب . ثم جعل العرب يردون على التحدي . وما هي الا بضعة اشهر ، حتى كانت (القدس الجديدة) متاهة مخيفة من أسلاك شائكة ، وبيوت مهجورة ، وخرائب متناثرة تتخاطب باصوات الرصاص ليل نهار .. لكن (القدس) تُجرح ولا تموت، تتحطم ثم تنتعش من جديد .











٥

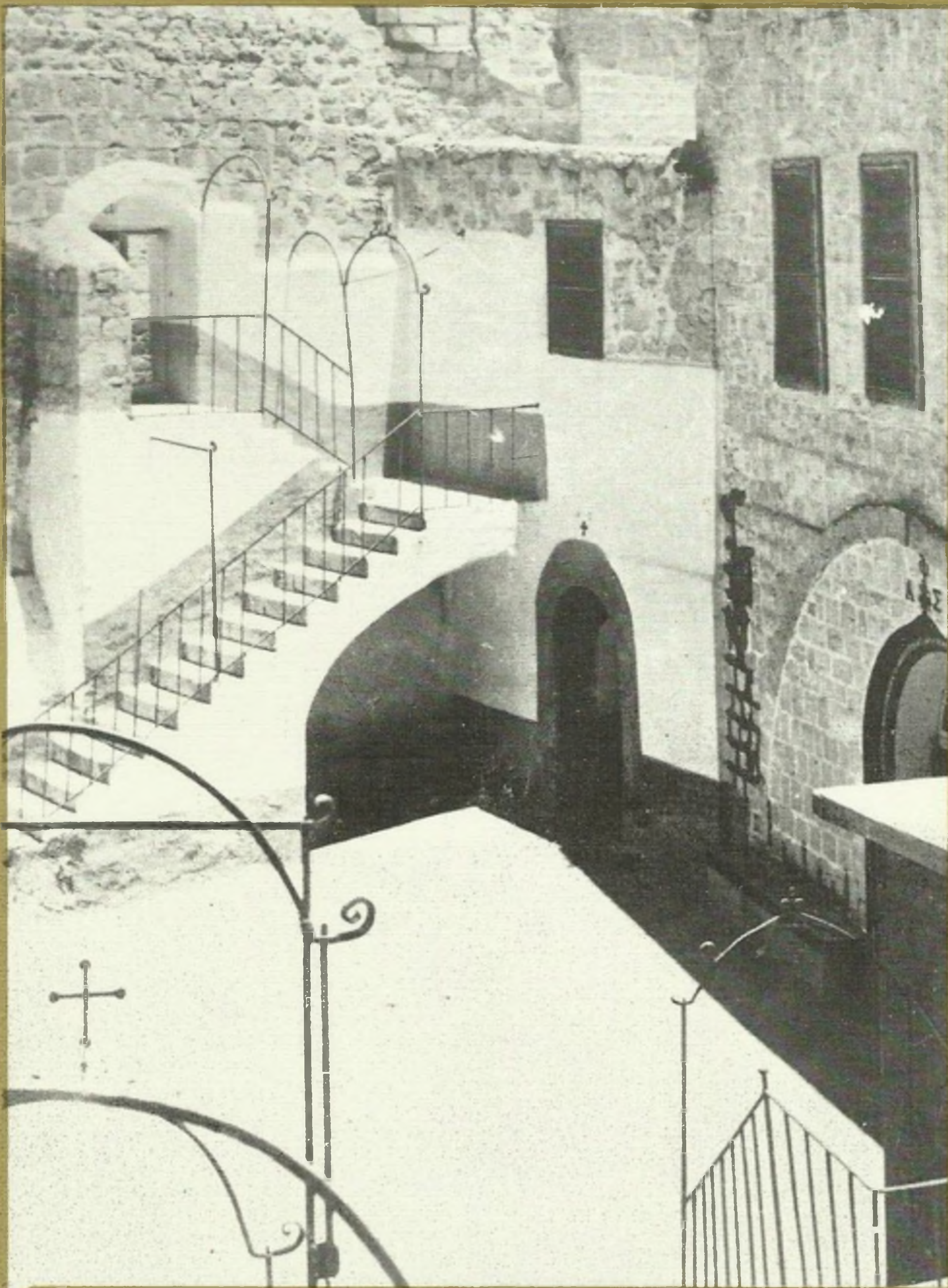
اول من بنى مدينة (القدس) اقوام سامية ، جاءت من الجزيرة العربية يطلق عليها اسم الكنعانيين . لقد بنى هؤلاء العرب ، مدينة (القدس) حوالي عام ٢٥٠٠ قبل الميلاد ، واطلقوا عليها اسم (اور سالم) وتعني (مدينة السلام) .

وقد قاومت (القدس) هجمات العبرانيين زمنا طويلا ، بعد ان جاؤا ارض فلسطين ، غزاة ، ولم يدخلوا المدينة الا عنوة بعد تأسيسها بحوالي خمسة عشر قرناً من الزمن .

وما من ريب في ان الملك (داود) عندما جعلها عاصمة له ، حوالي عام ١٠٠٠ قبل الميلاد ، اختارها لانها كانت مدينة كنعانية متكاملة هي مركز عبادة هام ، فاستغل فوائدها كلها : من حصانة ومركزية ، ومكانة في أعين السكان الذين كانوا ما يزالون يعبدون الاله القديم (تموز)،يبكون موته بالمراثي ، وفي الربيع يحتفلون بعودته الى الحياة ، وعودة الخصب الى الارض معه .

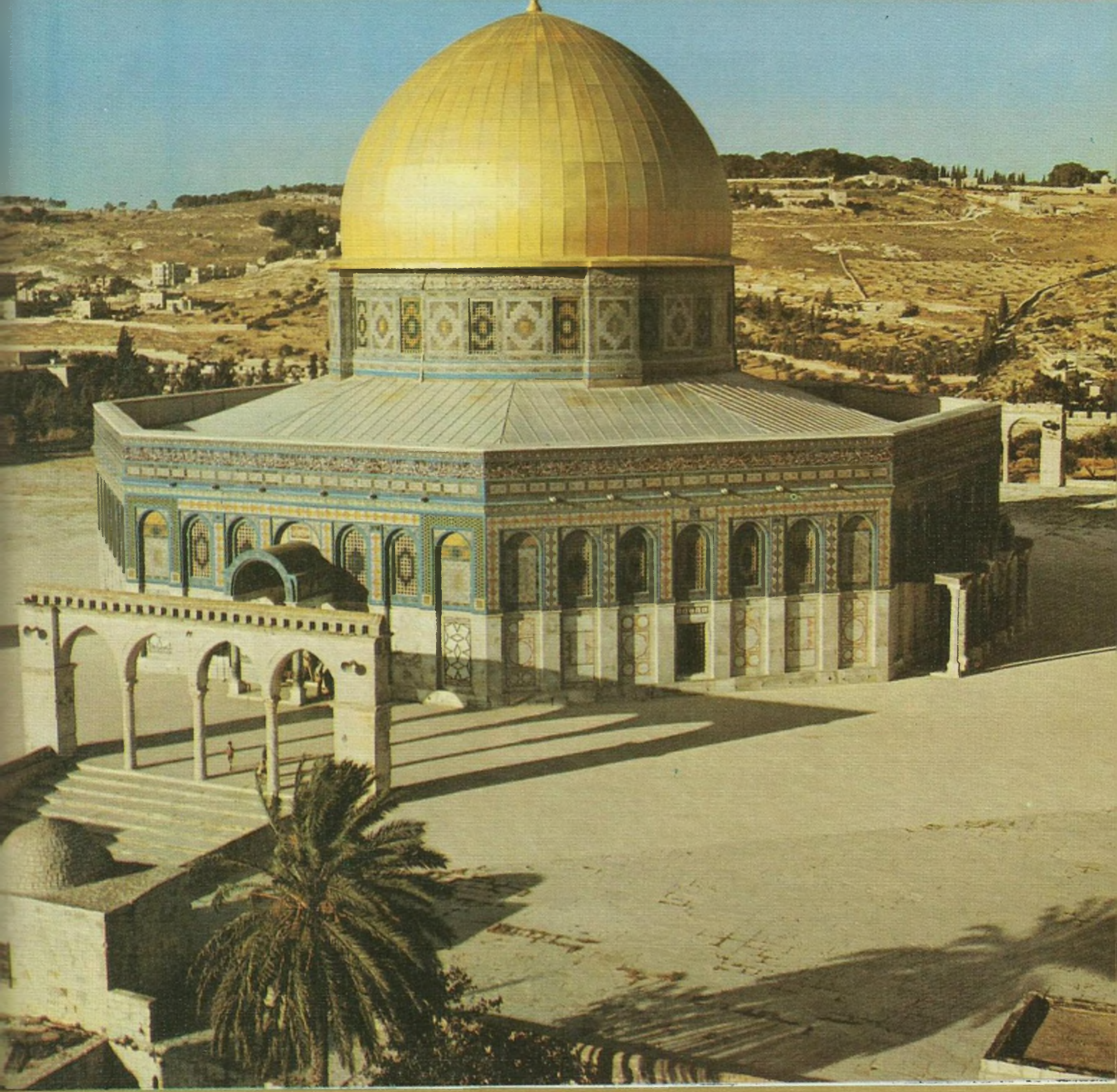


والعبرانيون فرضوا وجودهم على سكانها الاصليين بالقوة ، وحتى كتب التوراة ، رغم ما أعمل فيها كتابُ اليهود القدامى من تحريف ، تشهد على ذلك .



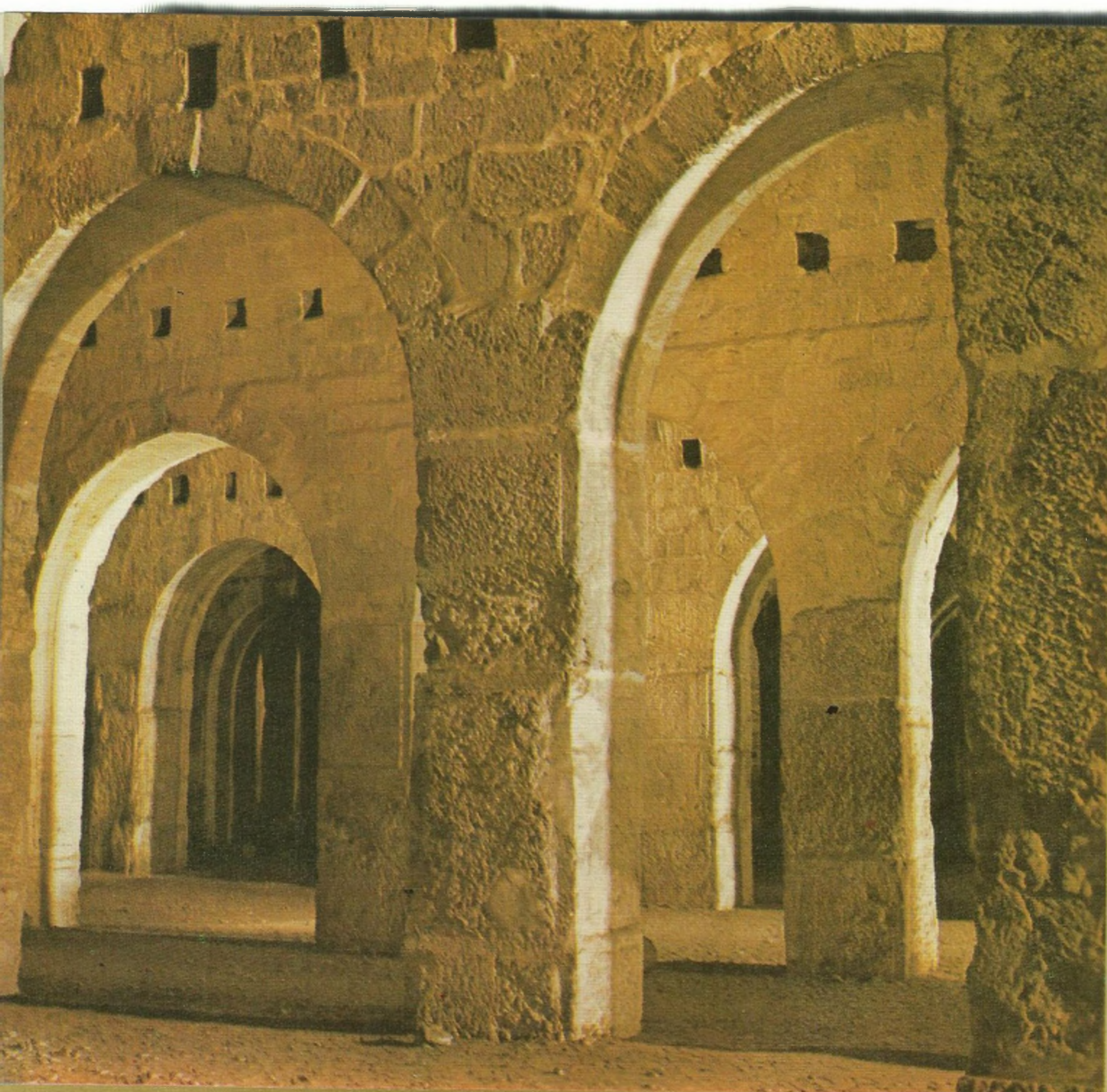
وقد عُرِف العبرانيون بقسوتهم على من يغلبونهم في فتوحاتهم ، مدعين بان (يهـوه) يأمر بقتل كل امرأة وشيخ وطفل ، عدا البالغين ، بل وقتل الخيول والمواشي وما تحفل به الارض من حيوانات .

★ يهوه : اسم اله اليهود الذي يعتبرونه خاصاً بهم .

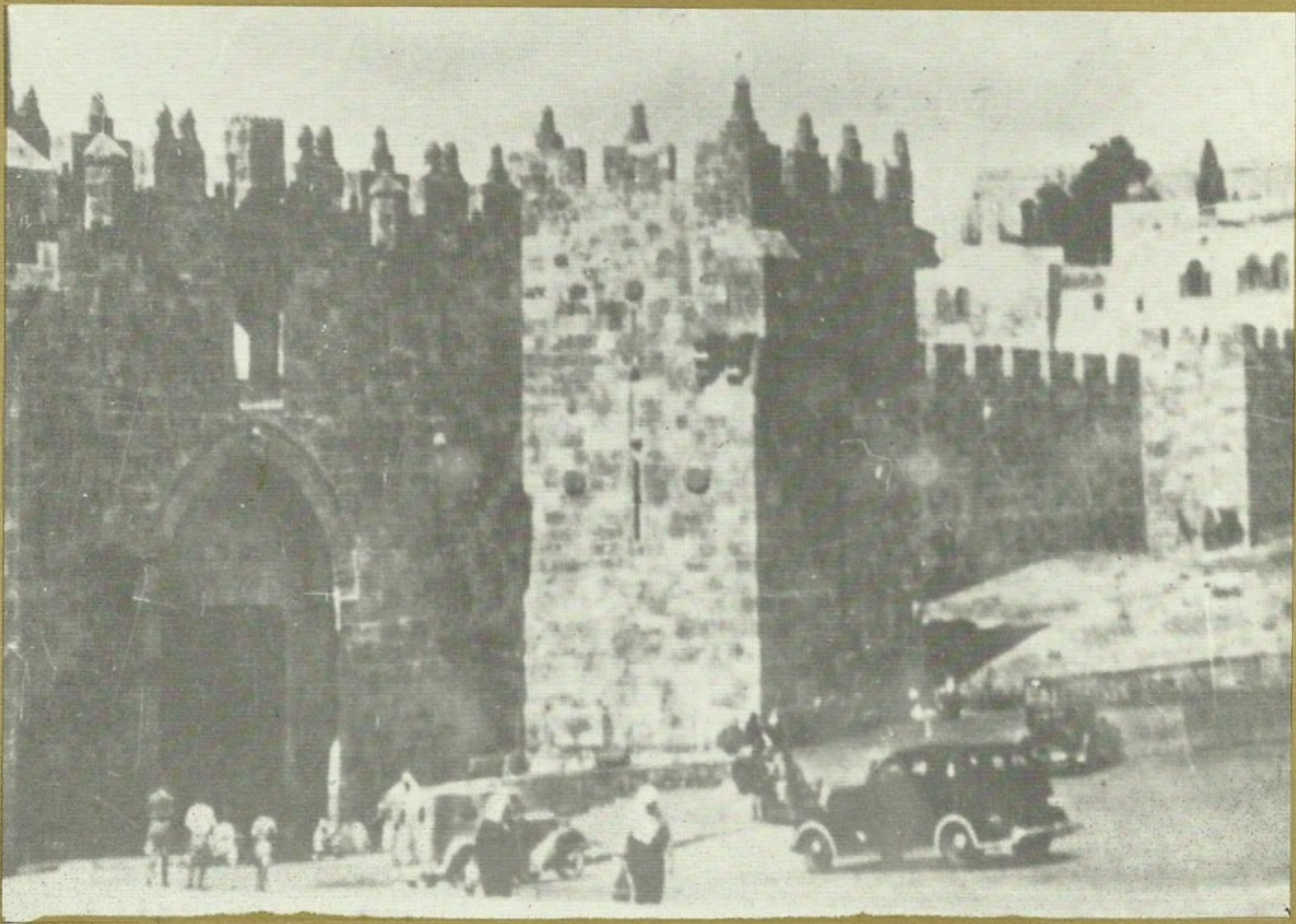


واستطاع (نبوخذ نصر) ملك بابل ان يفتح المدينة عام ٥٨٦ قبل الميلاد ، وسبى كبار اليهود الى ارض العراق،وأحلّهم على نهر الفرات . وقد كان من مآسي التاريخ ، ان بابل عندما وقعت في ايدي الفرس ، راح هؤلاء يساعدون اعداء بابل على الثأر منها ، فاعادوا اليهود الى (القدس) بعد سبيهم منها بنصف قرن ، ليبنوا هيكل سليمان من جديد ، ويعيدوا بناء الاسوار .

٥

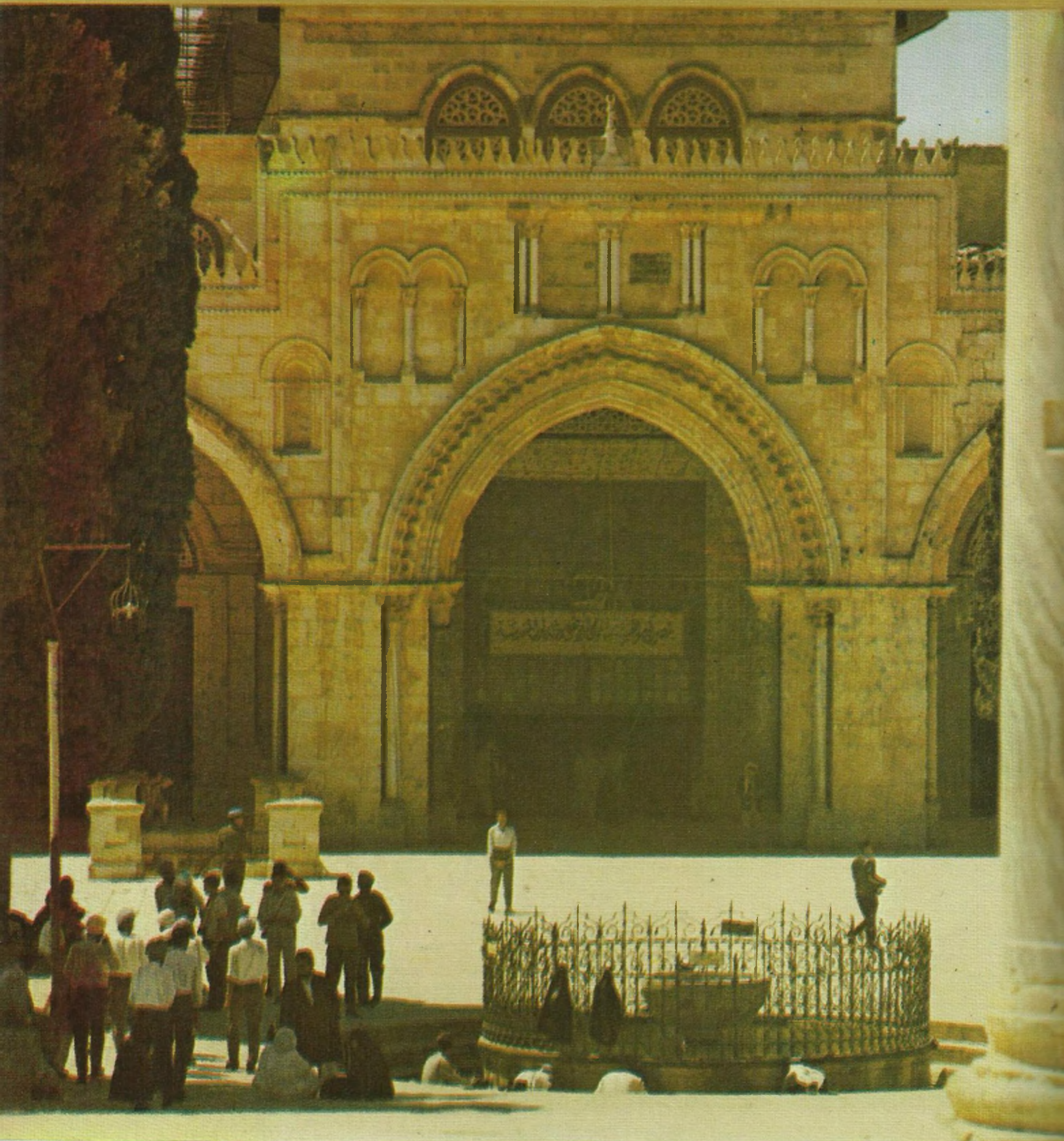


غير ان سلطة اليهود على (القدس)،لم تبق مطلقة لمدة طويلة ، فقد وقعت تحت ظل خلفاء (الاسكندر) منذ اواخر القرن الرابع قبل الميلاد ، وأصبحت المدينة جزءً من الحضارة الارامية الهلنستية،حيث يتكلم الناس بالارامية ، ويكتب المفكرون بالاغريقية ، وليس للعبرية الا قيمة دينية شعائرية ، حتى بين اهلها . والحضارة الارامية هي الحضارة القديمة التي انبثقت عنها الحضارة العربية اللاحقة فهي إذاً في فلسطين، امتداد للوضع الكنعاني العربي ، في المناخ والتفكير .



وقد كانت روما خليفة الهلنستيين في حكم (القدس). وأقامت ملوكاً في المنطقة .. خاضعين لها. ولئن أبقت روما على شيء من الكيان اليهودي لزمن ما ، فانها ضاقت به ذرعا ، وانتهى الامر الى ان جاء القائد الروماني (طيطوس) الى (القدس) واقتحمها عام ٧٠ للميلاد ودمّرها .

واقيمت فيها حامية رومانية حتى عام ١٣٢ للميلاد ، عندما تمرد اليهود مرة اخرى فسحقتهم قوات الامبراطور (هردیان) ودمرت المدينة تدميرا كاملا ، وحرثت ارضها حرثا ، وطردت منها اليهود طردا قاضيا .



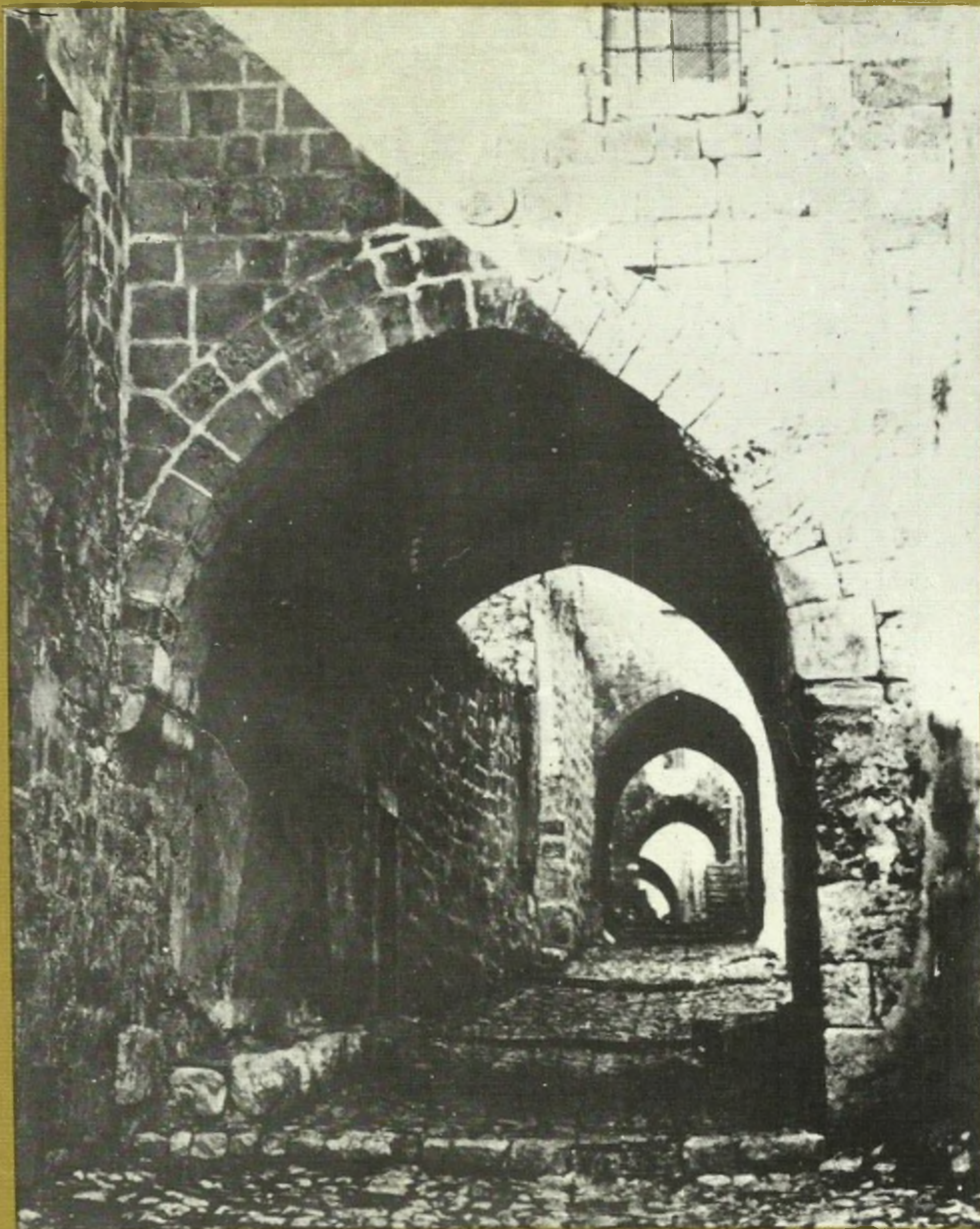


ولكن اللون الحضاري الذي بقيت المدينة تتصف به ، بقي هو العربي الاغريقي .. وفي هذه الفترة تظهر اولى الدويلات العربية الى الشمال من القدس : في (تدمـر) .. فعـادت القدس الى وضعها الطبيعي الصحيح ، من حيث السكان أنفسهم ، رغم بقـاء السـلطة البيزنطية في البلاد .



وكانت النتيجة ان تشتت اليهود منذ ذلك اليوم وزالت عن (القدس) الصبغة اليهودية الظاهرة، وتحطم (هيكل سليمان) للمرة الاخيرة، هذا الشعار العرقي، الذي ابقاه اليهود نصب أعينهم قروناً متوالية. وعلى انقاض المدينة القديمة بنى الرومان مدينة جديدة، اسموها (ايليا كابيتولينا). ومكان الهيكل اقاموا هيكلا لـ (جوبيتر)

* جوبيتر: هو رب الالهة في الاساطير الوثنية عند الرومان.



والغريب ان الفرس ، الذين اعادوا اليهود من بابل ، كانوا يفعلون ذلك مـرة اخـرى ، عندما هاجموا فلسطين ، ودمروا (القدس) عام ٦١٤م ، بقيادة (كسرى الثاني) .. وجاؤا

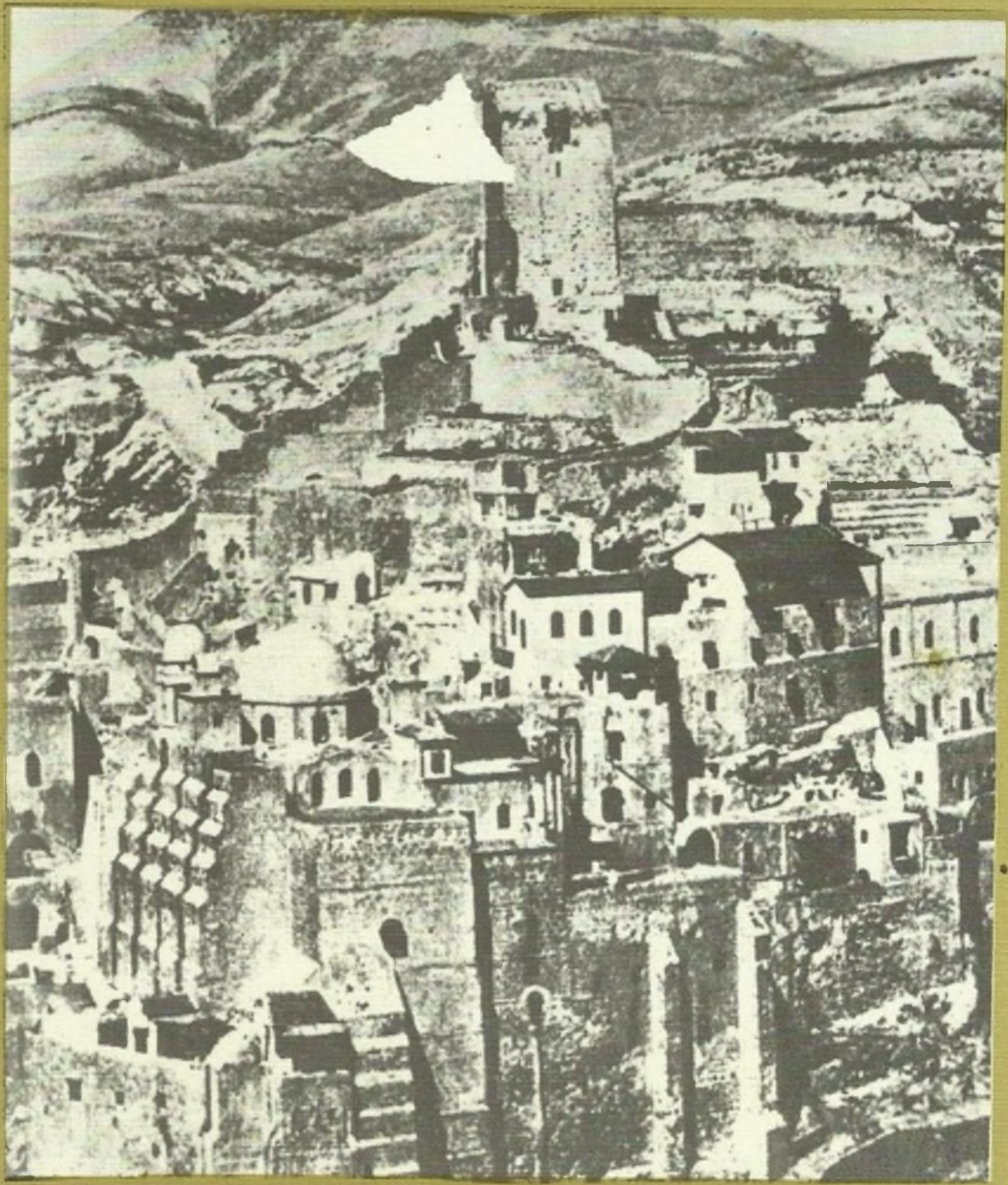


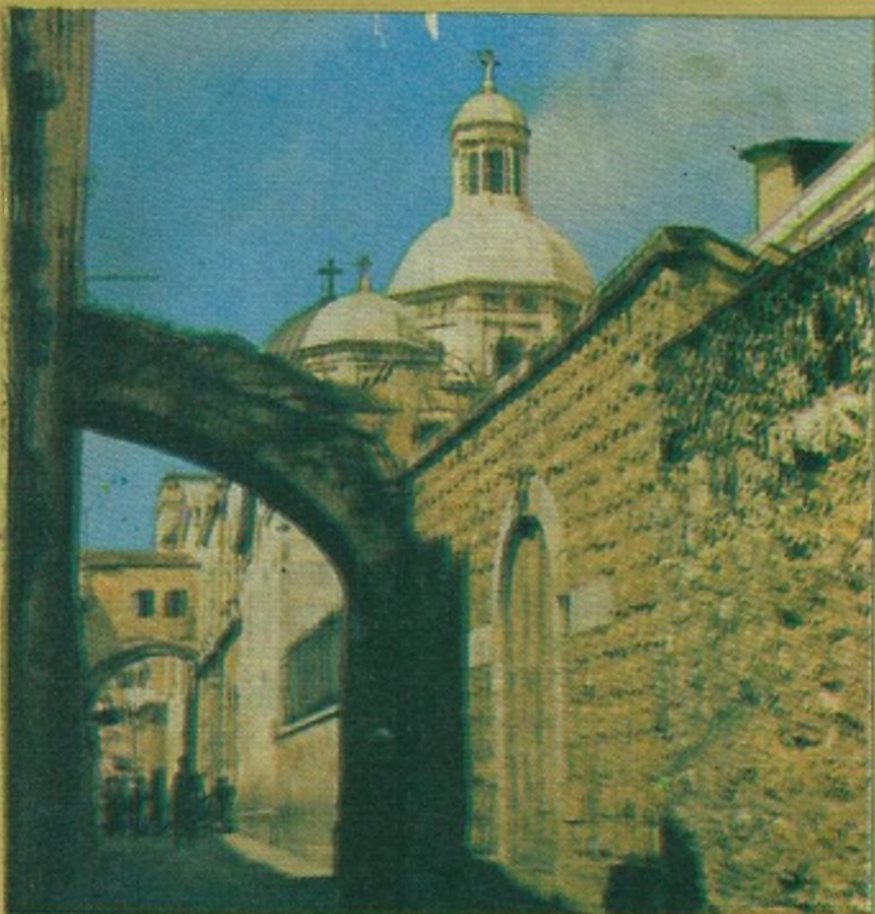
معهم الى (القدس)،بالاف من اليهود الذين قاموا مع اسيادهم الفرس ، بذبح الاهـالي، وتهديم المباني والكنائس ، فنهبت (القدس) ، وقُتل الألوف من سكانها ..



وفي دير (مارسابا) الواقع في التلال الجرد جنوب شرقي القدس ، يجد المرء حتى اليوم اكوام الجماجم، التي يقول الرهبان انها جماجم القتلى في تلك الحملة الوحشية .

ثم ذهب الفرس ، وذهب معهم اليهود ، وعادت السلطة البيزنطية الى المدينة على يد (هرقل)، حتى مقدم الجيش العربي عام ٦٣٧م ...







وحصارها على يد (عمرو بن العاص) اولا ، ثم (ابي عبيدة بن الجراح) ، زهاء اربعة آشهر . واخيرا دخلها الخليفة (عمر بن الخطاب) (رض)،ذلك الدخول المشهور العجيب ، وهو يرتدي (المرقعة)* لئلا يُقال انه شَمخ أو تجبّر .

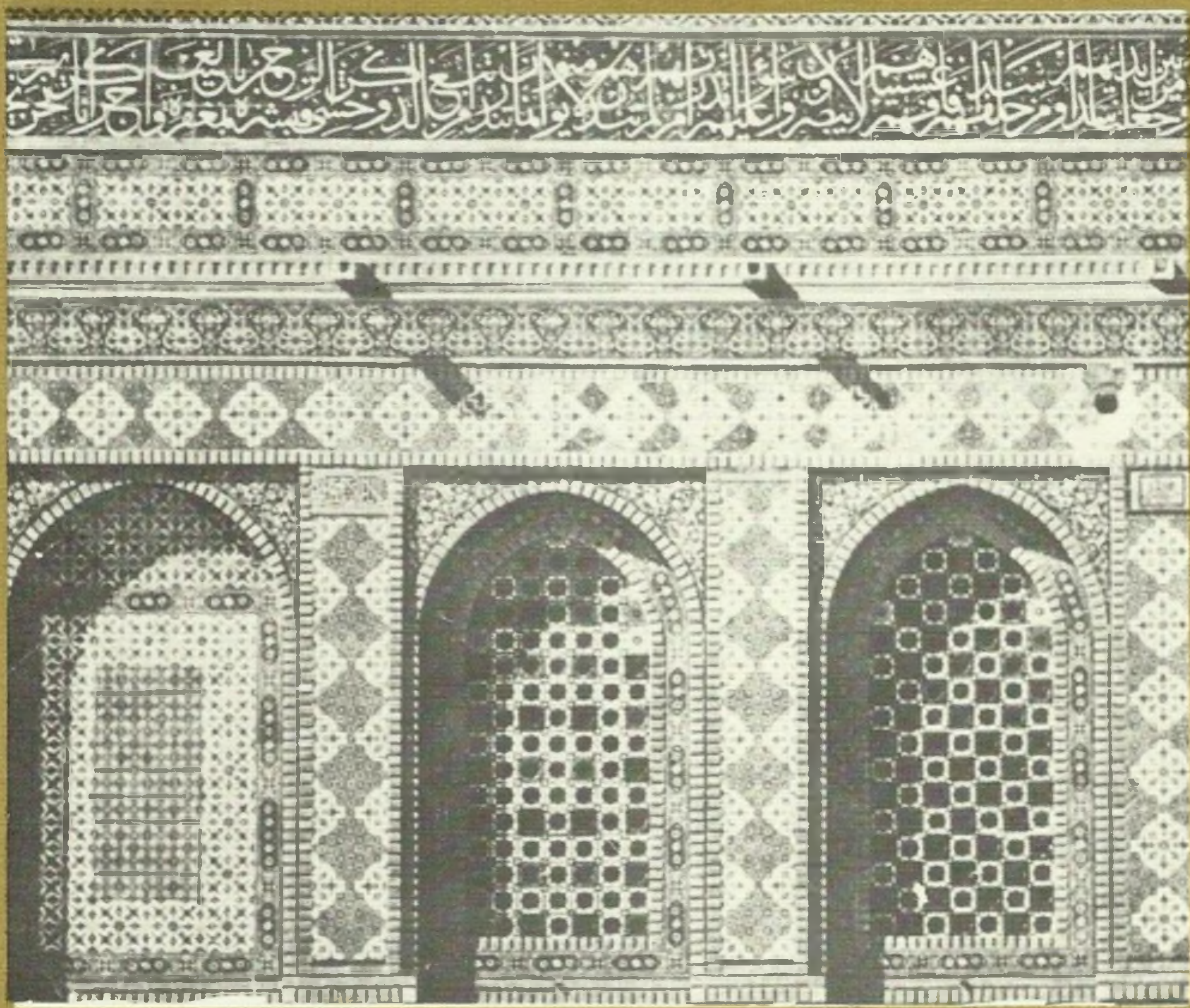
* المرقعة : العباءة القديمة المرقعة التي كان عمر بن الخطاب يرتديها دلالة على تواضعه وبساطته في العيش .



ومن المدهش ان اليهود لعبوا لعبتهم التاريخية المألوفة هذه المرة ايضا ، فقد حسبوا ان العرب جاؤا فاتحين على غرار الفرس ، فأرادوا دخول المدينة ، متسترين بالجيش الجديد ، غير انهم لم ينجحوا فقد جاء في (كتاب الأمان :

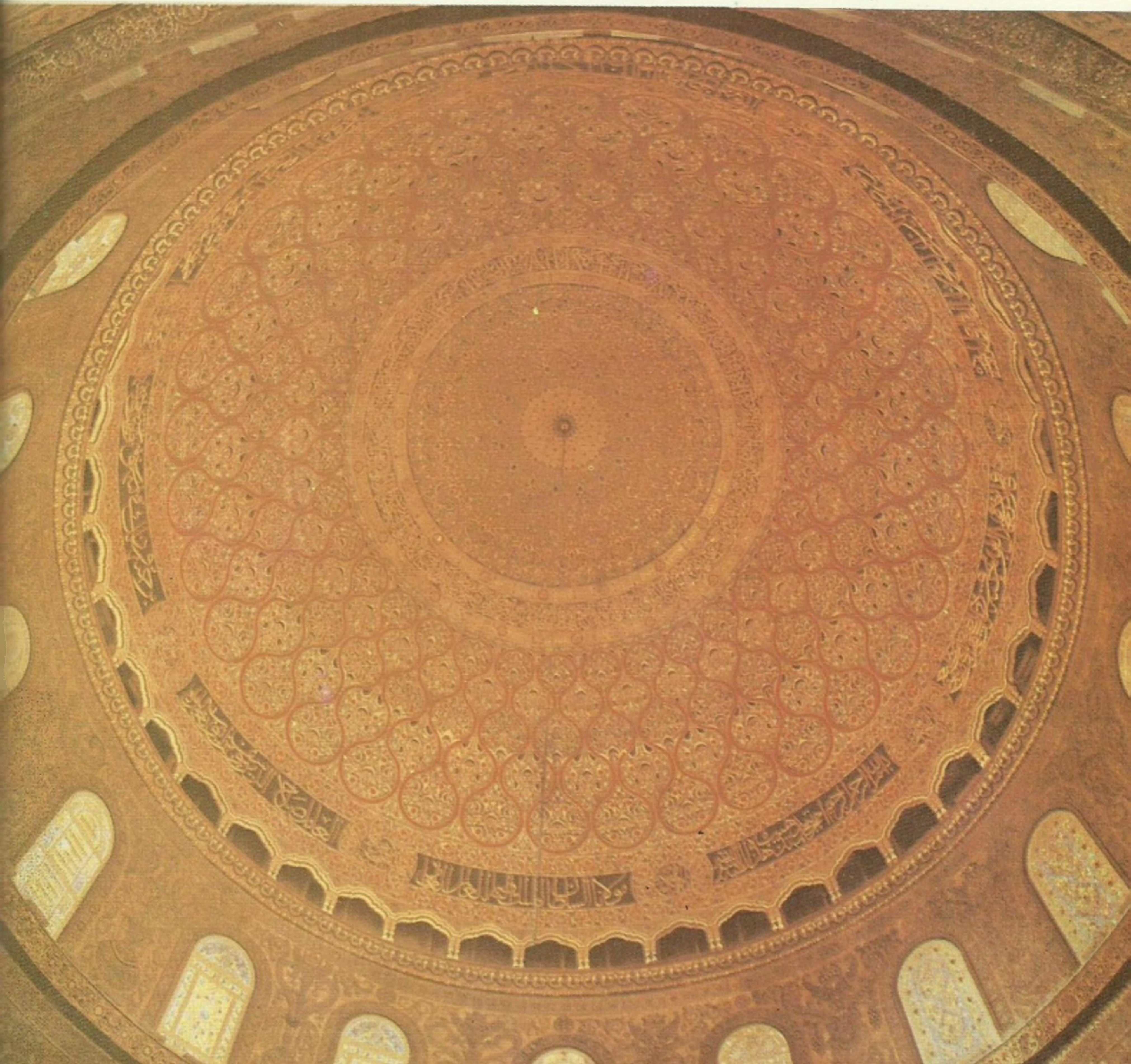
كتاب الامان) : ميثاق الصلح الذي عقد بين الخليفة (عمر بن الخطاب) (رض) وبطريرك القدس (صفرونيوس) .





(هذا ما اعطى عبدالله (عمر) امير المؤمنين اهل ايلياء★ من الأمان . اعطاهم أمـانا لانفسهم واموالهم ولكنائسهم وصلبانهم .. انه لا تُسكن كنائسهم ولا تهدم ، ولا ينتقص منها ولا من حيزها ، ولا من صلبهم ولا شيء من اموالهم ولا يكرهـون على دينهـم ولا يُضار أحدٌ منهم ، ولا يسكن بايلياء معهم احد من اليهود ..) .

★ ايلياء : كانت هذه تسمية مدينة القدس التي اثرها العـرب أيامـئذ والتي كانت تطلق على المدينة منذ عام ١٣٢م . وهي في الاصل الاسم الاول للامبراطـور ايليانوس هـرديان الذي طـرد اليهود من المدينة ، كما جاء آنفاً .



ولكن نوايا اليهود لم تخف على اهل المدينة ، فاتفقوا مع الخليفة العادل على احباطها .

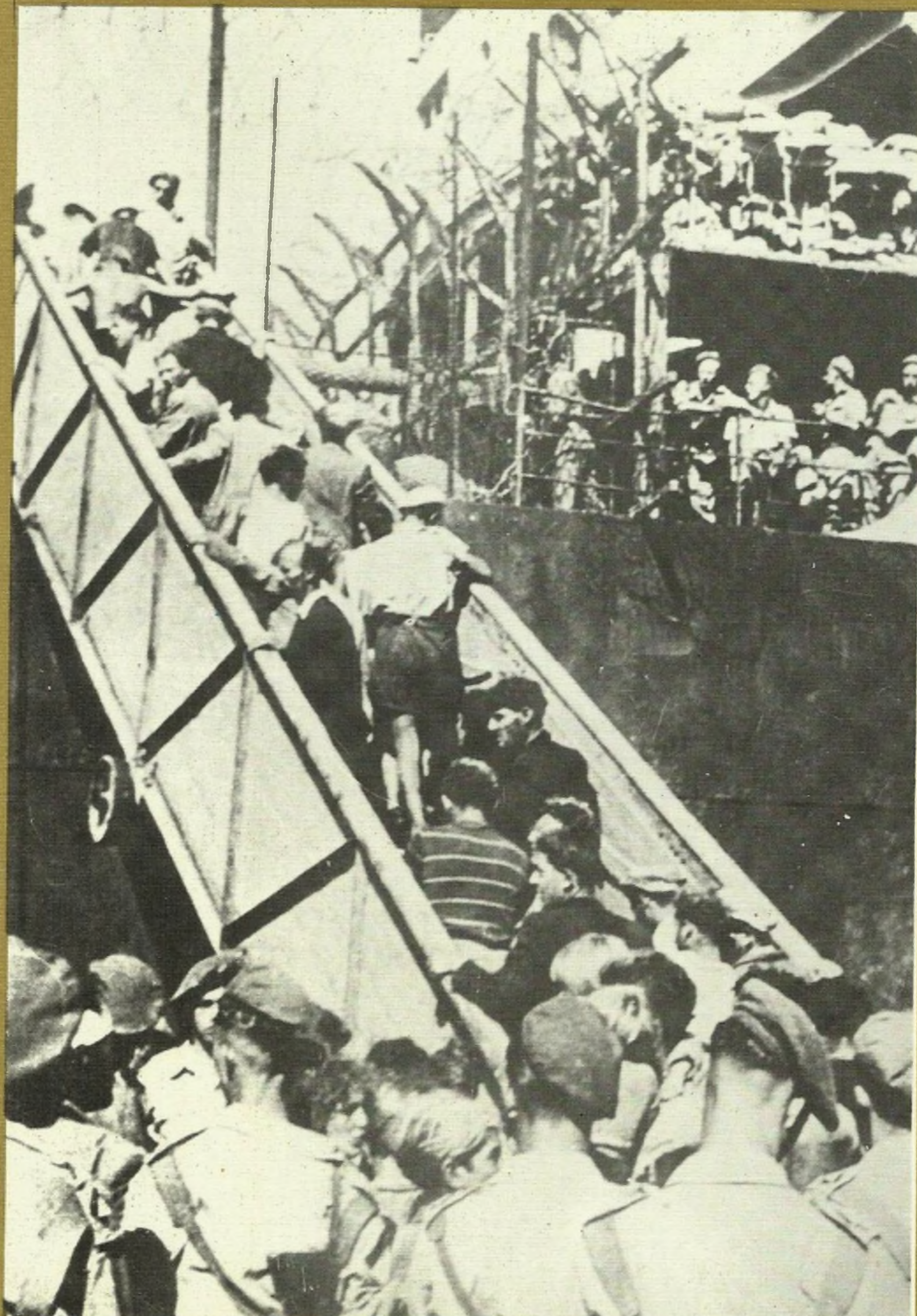


ويذكر المؤرخ (الطبري) ان احد اليهود كان قد حث الخليفة (عمر) قبل ذلك في معسكر قرب (دمشق) قائلا : (ياأمير المؤمنين ، لا ترجع الى بلادك حتى يفتح الله عليك ايلياء).



استمرت (القدس) في عروبتها ، لا سيما اثر اخفاق الصليبيين بعد مائتي سنة من القتال المتواصل ، في نزعها من ايدي العرب ، اذ دخلها الصليبيون عام ١٠٩٩ بقيادة (غودفري دي بويون)،وحررها من ايديهم (صلاح الدين الايوبي) عام ١١٨٧ ، ثم استيلاء العثمانيين عليها ، على يد (سليمان القانوني) عام ١٥١٧م ، ثم استيلاء الانكليز على فلسطين ودخولهم (القدس) بعد ذلك في عام ١٩١٧م ، ودخول اليهود من جديد ، متسترين بحماية ومساعدة الفاتح الجديد .

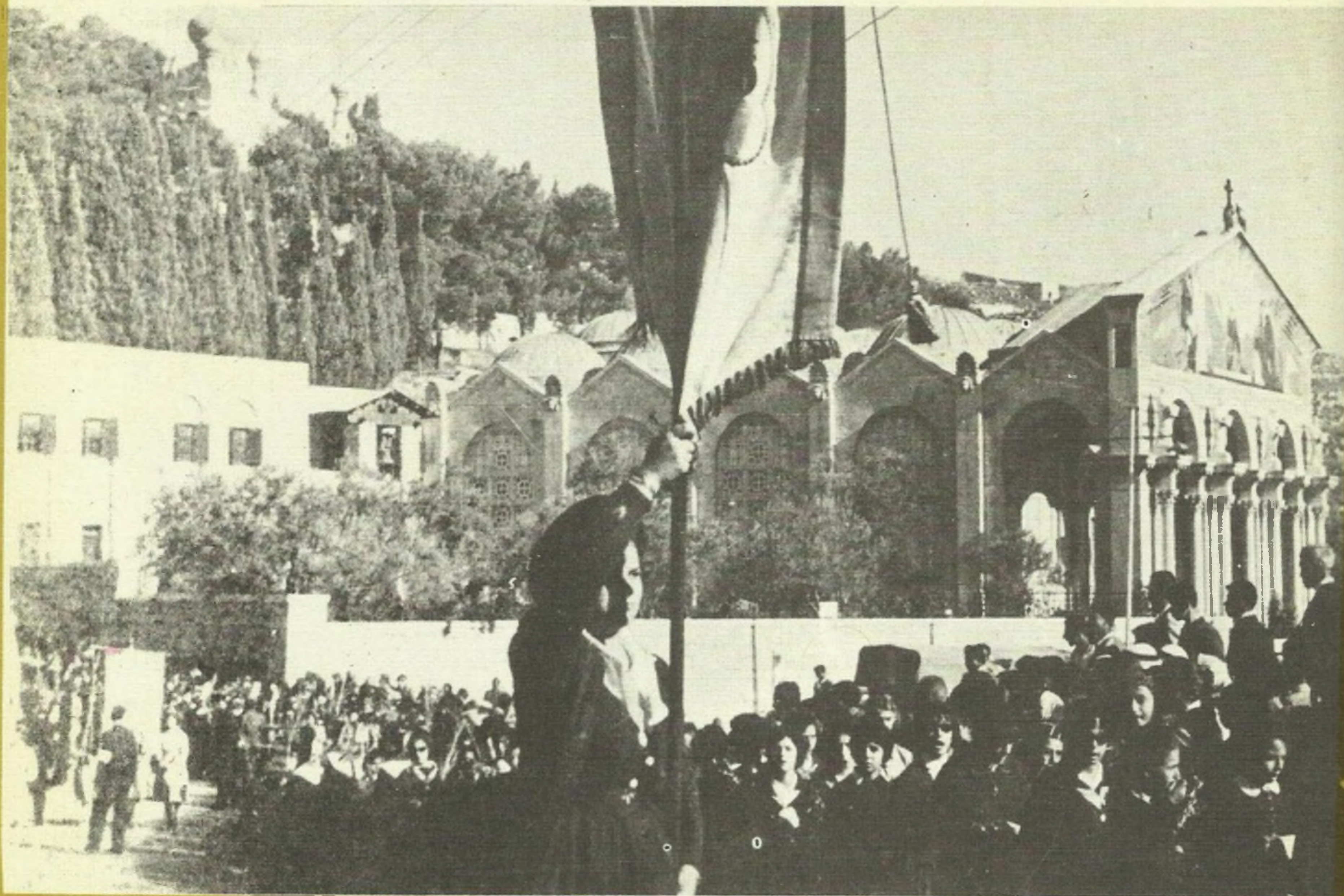
لقد دخل الجنرال (اللنبي) مدينة (القدس) في ١١ كانون الاول عام ١٩١٧م ، من باب الخليل ، ممهدا الدرب لحفنة من الصهيونيين،كانوا منذ اواخر القرن التاسع عشر ، دائبين يشترون الذمم ، ويساومون العثمانيين والانكليز وغيرهم ، من اجل الاستيلاء على هذه الارض العربية .



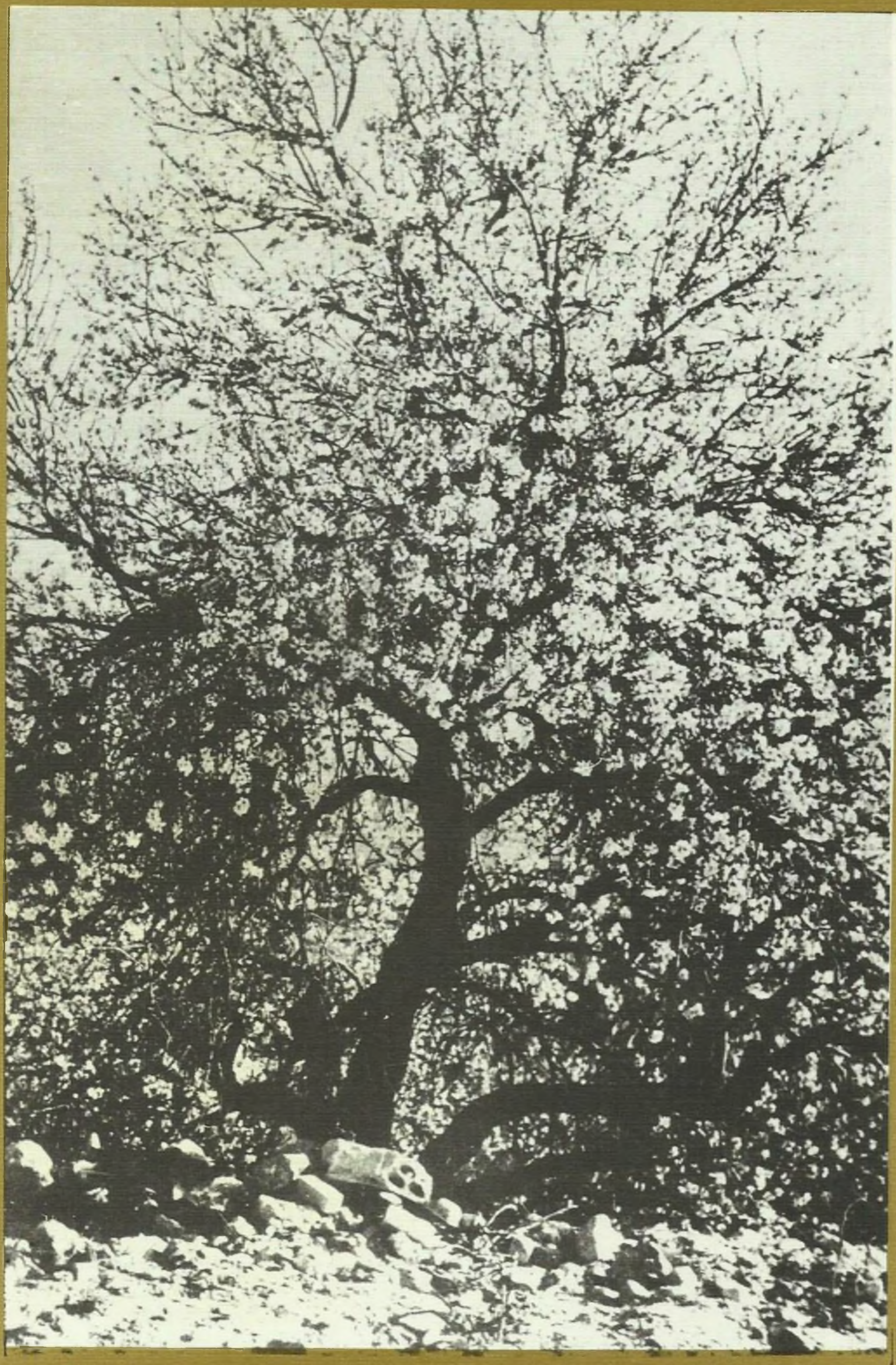


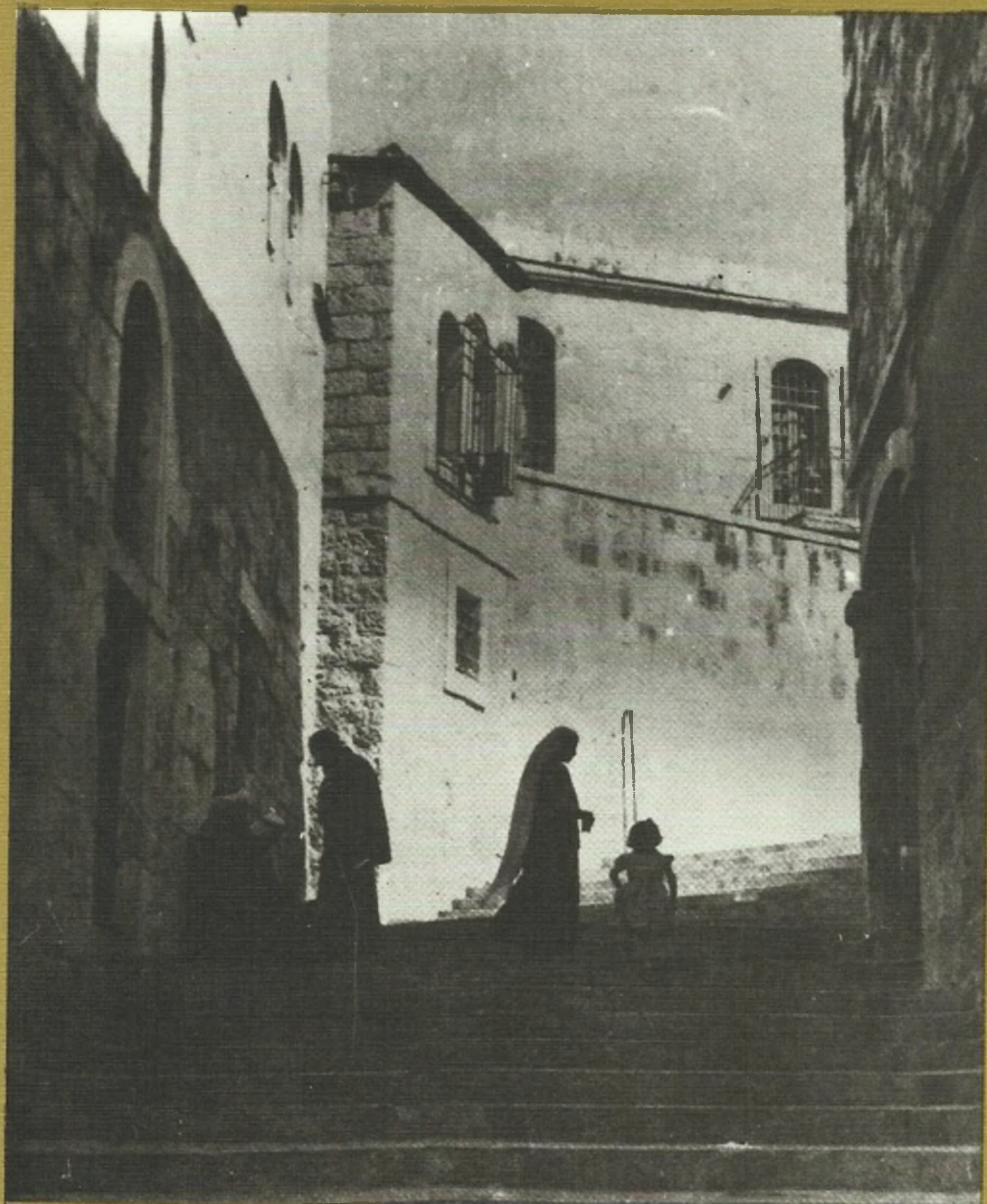
ثلاثون عاما ، من التناقض السياسي الرهيب ، مرت بعد ذلك على القدس .. ثلاثون عاما من صراع (فلسطين) مع قوة غاشمة ، فعمت المظاهرات والاضطرابات والاضرابات ، وامتلأت الشوارع بالجند والشرطة ، الذين راحو يطلقون الرصاص على الاف المتظاهرين من رجال ونساء وصبية ، وفي خضم من القنابل وبراميل الديناميت ، يفجرها ارهابيو اليهود في ابواب المدينة فتتناثر أشلاء الأبرياء ذات اليمين وذات الشمال .. ثلاثون عاما من منع التجول ، وملاحقة الشباب ، وفرض العقوبات الجماعية على القرى ..

ورغم هذا كله ، فقد كانت المدينة في نمو دائم ، تتسع وتزداد عمراناً ونضرة وجمالا .

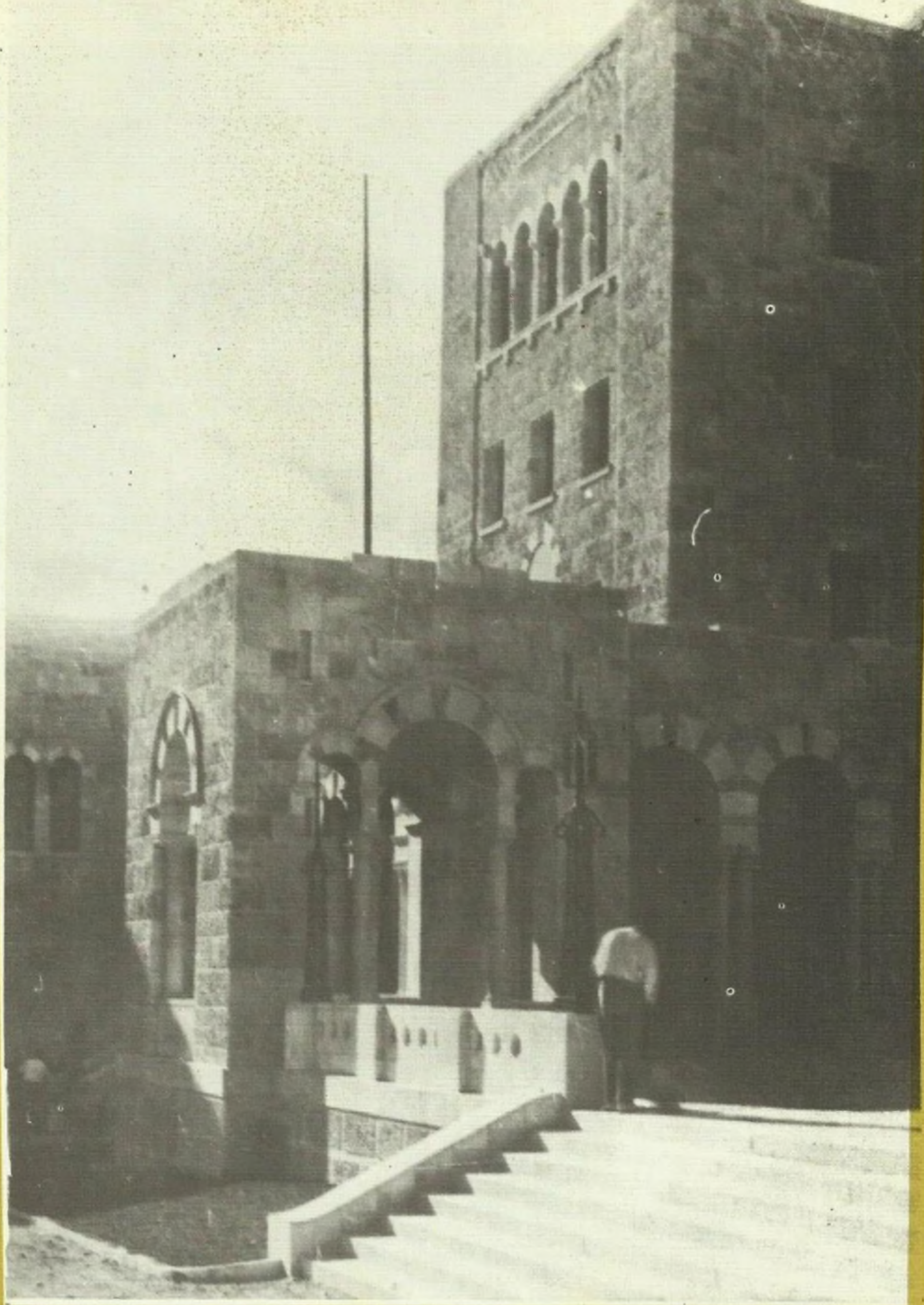




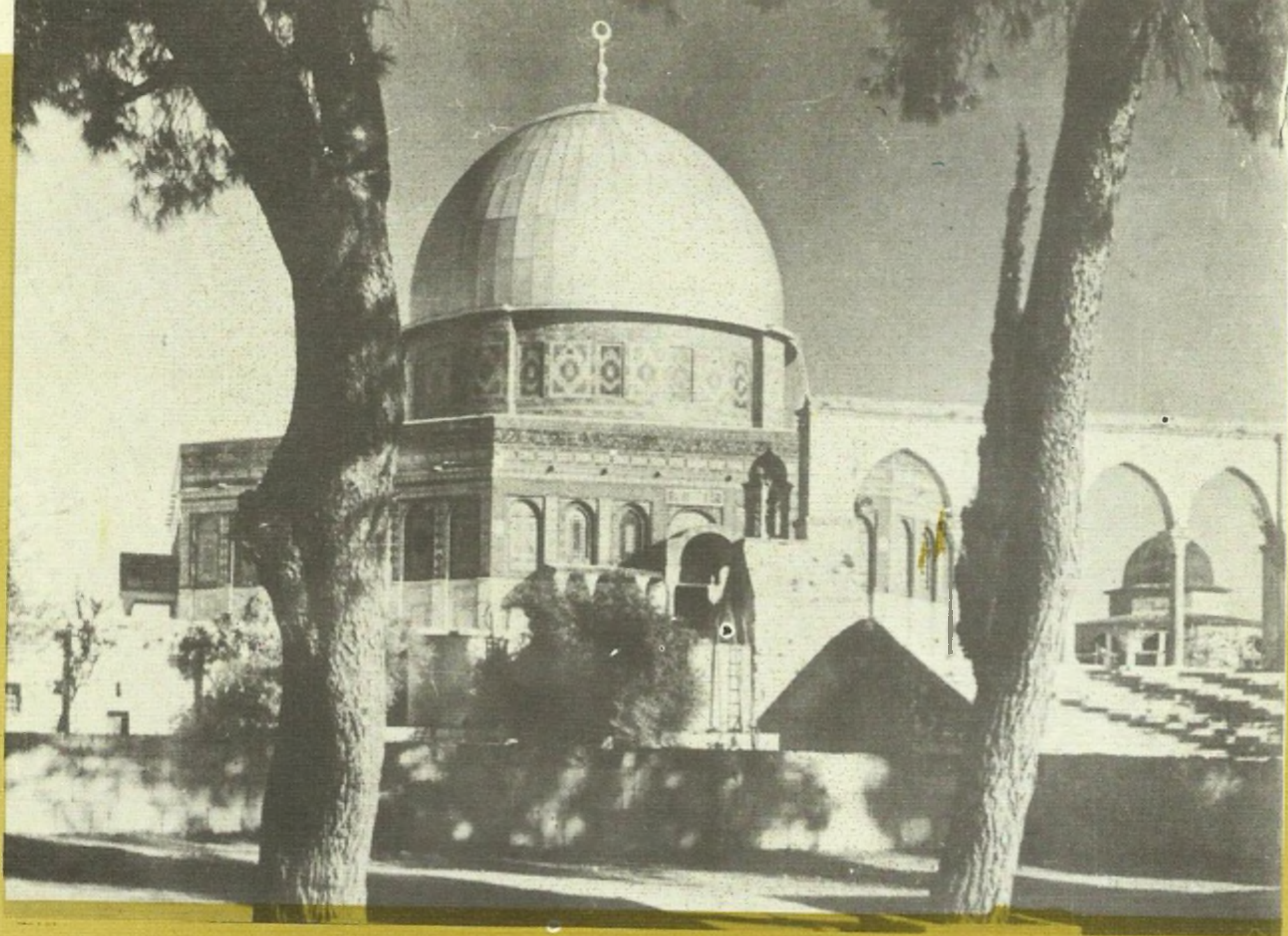




حينما يدخل المرء (القدس) من باب (العمود)،يدهش لازدحام طرقاتها ونظافتها معا ، فهي رغم ما يعج بها من جماهير ، مدينة نضرة ، منظمة ، لم يفقد سكانها رغم النكبة، شيئاً من حيويتهم ونشاطهم وحسن ضيافتهم . فهذه المدينة التي هي دوما موئل الاف السياح والحجاج ، لم يتنازل أهلوها يوما الى اساليب المدن السياحية ، التي لا تتورع عن استغلال الغريب . لقد اعتادت (القدس) على جماهير الوافدين ، الناطقين بكل لغة من لغات الارض ، فهي تنظر اليهم نظرة الكريم ، وتهيىء لهم ما يحتاجونه اليه من ضيافة،معتزة بنفسها ، من غير تزلف لمأرب ، ومن غير رغبة في مغنم .



(القدس)،كأكثر العواصم العربية منذ القرن السابع الميلادي،لا سيما (بغداد) و (دمشق)،مدينة تتخالط فيها الثقافات العريقة ، تخالطا عجيبا ، فنغني بتياراتها،السيل الحضاري العربي الكبير . هذه معجزة اخرى من معجزات التاريخ في هذا الجزء من العالم : تعايش المذاهب، والألسنة والعادات في ظل الشخصية العربية . وكون (القدس) مركزاً للديانات السماوية جعل هذا التعايش ميزتها الكبرى،طيلة الاربعة عشر قرنا الاخيرة ، فالحرم الشريف ، اولى القبلتين ، وثالث الحرمين ، يشغل من مساحة المدينة القديمة سدسها .. وهو اول ما يلفت النظر عندما يطل المرء عليها قادما من الشرق . ان العين في الحال لتستقر على هذه القبة الذهبية الوضاءة : قبة الصخرة . وهذه الصخرة التي أقيمت القبة عليها ، انما هي نواة (القدس)،وقلبها منذ أقدم ازمانها ..







مسجد (قبة الصخرة) في شكله الحالي الرائع ، ابتناه الخليفة الاموي (عبدالملك بن مروان) عام ٦٨٨م .. وقد اقترنت الصخرة بمعراج النبي (ص)،وفيها اثر قدم النبي ليلة أسرى وحط عليها ، رابطاً حصانه (البراق) على مقربة منها .. وهي أيضا الصخرة التي يروى ان (ابراهيم الخليل) أراد ان يضحيَ بابنة (اسحق) عليها . كما انها تقع ضمن المنطقة التي اقام (سليمان) عليها هيكله .

(قبة الصخرة) اجمل واروع مسجد في العالم ، وهي في المقدمة من مباني الحضارة الانسانية هندسة وفخامة ، وجمعت بين الدقة والبراعة والرهافة ، لا في النسب التي بين اجزائها فحسب ، بل في التفاصيل الزخرفية العجيبة ، في الداخل والخارج ، بما فيها من فسيفساء ..

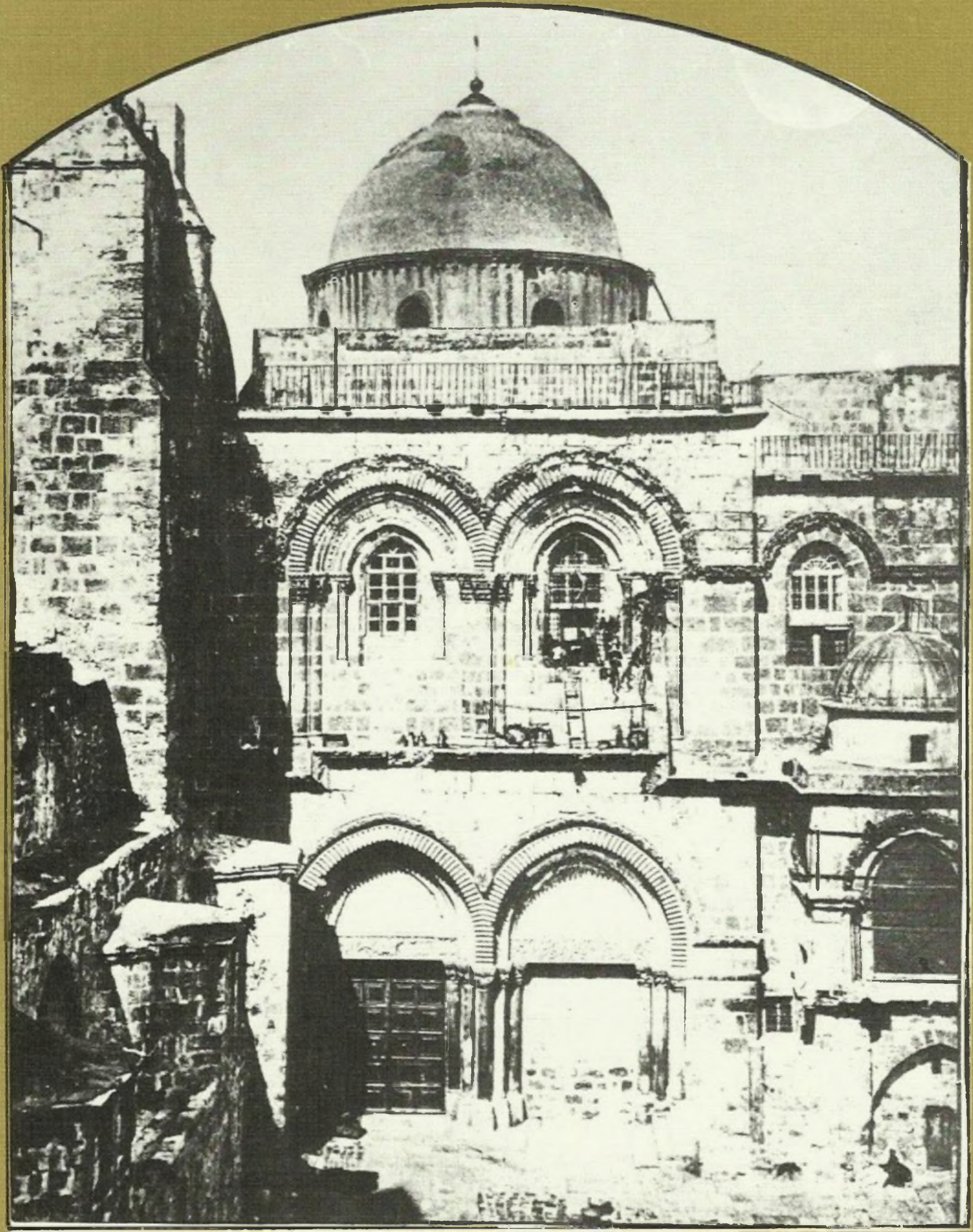
وقد رفعت الطبقة الرصاصية الثقيلة،التي كانت تعلو القبة فيما مضى وأعيد بناء هذه الطبقة الخارجية من سطح القبة ، بمزيج معدني صلب وخفيف ذهبي اللون ، جعلها تتلالا وتتوهج ، كما حق لها أن تتلالا وتتوهج وسط مباني المدينة القديمة .

وعلى مسافة من (قبة الصخرة) يقوم (المسجد الاقصى) متسعاً للالاف من المصلين .. وهو في بعض تفاصيله ، تحفة عمرانية .



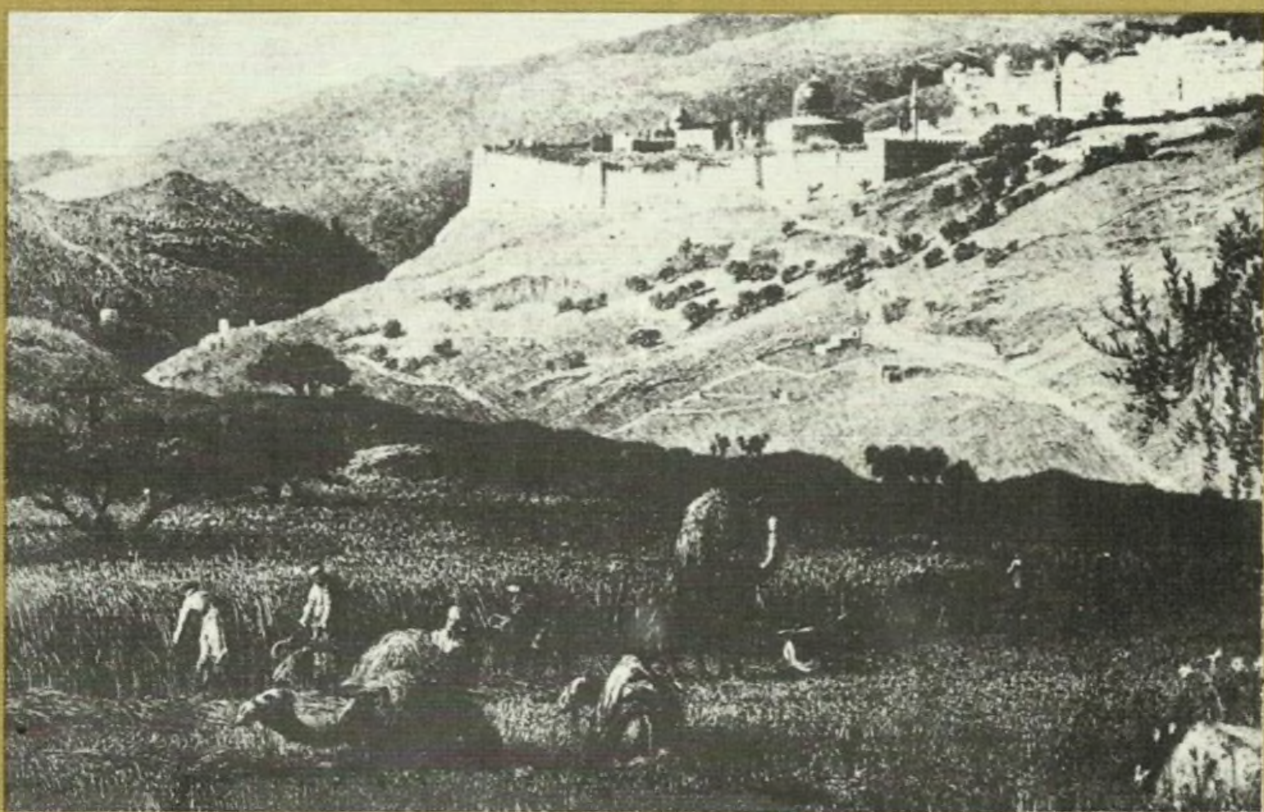


الحرم الشريف وكنيسة (القيامة) هما ، بالطبع ، المقومان الاولان لكيان المدينة .
وكنيسة (القيامة) التاريخية ، اكمل بناؤها بأمر من الملك (قسطنطين) في عام ٣٣٥ للميلاد ، على المكان الذي قيل ان صليب المسيح (ع) وجد فيه . وهي تضم (الجلجلة) ★ وقبر السيد المسيح ، فهي ترى اروع ما ترى في اسبوع الالام وعيد الفصح .. فيها تتوالى الصلوات بلغات الحضارات الكبرى التي مرت على (فلسطين) ..



★ الجلجلة : المكان الذي صلب فيه السيد المسيح .







وتضاء الالاف من شموع المصلين والحجاج المحتشدين حول القبر ، وتقرع النواقيس ، وترتفع الاصوات بالتراتيل من الاجواق .

في عيد قيامة السيد المسيح في اوائل الربيع ، وفي فلسطين كلها ، لا في القدس فقط ، تتفجر ودياتها وتلالها بملايين الازهار البرية ، والتي تبدو كأنها تكسو التراب والصخر على حد سواء ، اينما وقعت العين .

ولعل أبرز هذه الازهار ، واجملها (شقائق النعمان) الحمراء التي ترصع الأرض المحيطة بالمدينة من كل جانب ، فتلتهب وتتألق كالبساط على مدى البصر .

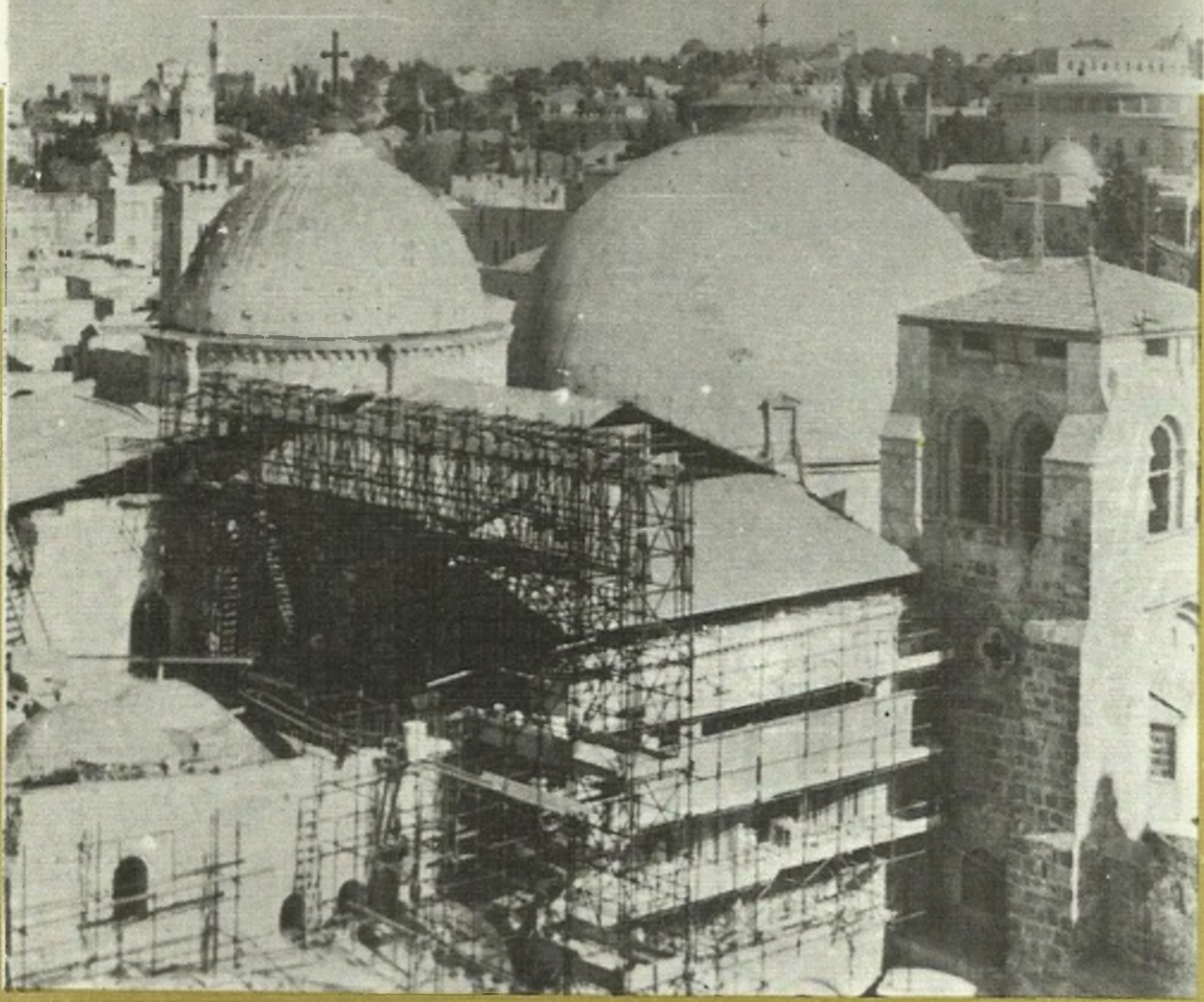


ما من امة في العالم ، الا وتريد ان يكون لها رقعة مهما صغرت ، في هذه المدينة .. قد تكون الرقعة ، احدى التكايا الملحقة بالحرم ، او قد تكون ديرا او كنيسة تتفاوت مساحة وضخامة . وفي كل مسجد وفي كل دير وراء الجدران السامقة ، عالم خاص له اجواؤه ولغاته وازياؤه وموسيقاه ، فالقدس مهما جارت عليها الازمان ، مدينة اعياد متلاحقة ، وشعائر دينية وضعت في خدمتها عبقرية الانسان .

انها على صلة بالعالم دائمة ، وهي في الوقت نفسه ، تتأمل ذاتها وتعيش مأساتها كل يوم ، وهذا بعض السبب ، في ان التاريخ هنا حي في كل زاوية ينطق به كل حجر ..

(القدس) ليست مجرد مكان فحسب ، انها الزمان ايضا .

انها تجسيد قائم لتجربة الانسان الهائلة،تاريخ حضارته ، منذ ان بدأ التاريخ يتضح على يديه ، بانجازاته وفواجعه .



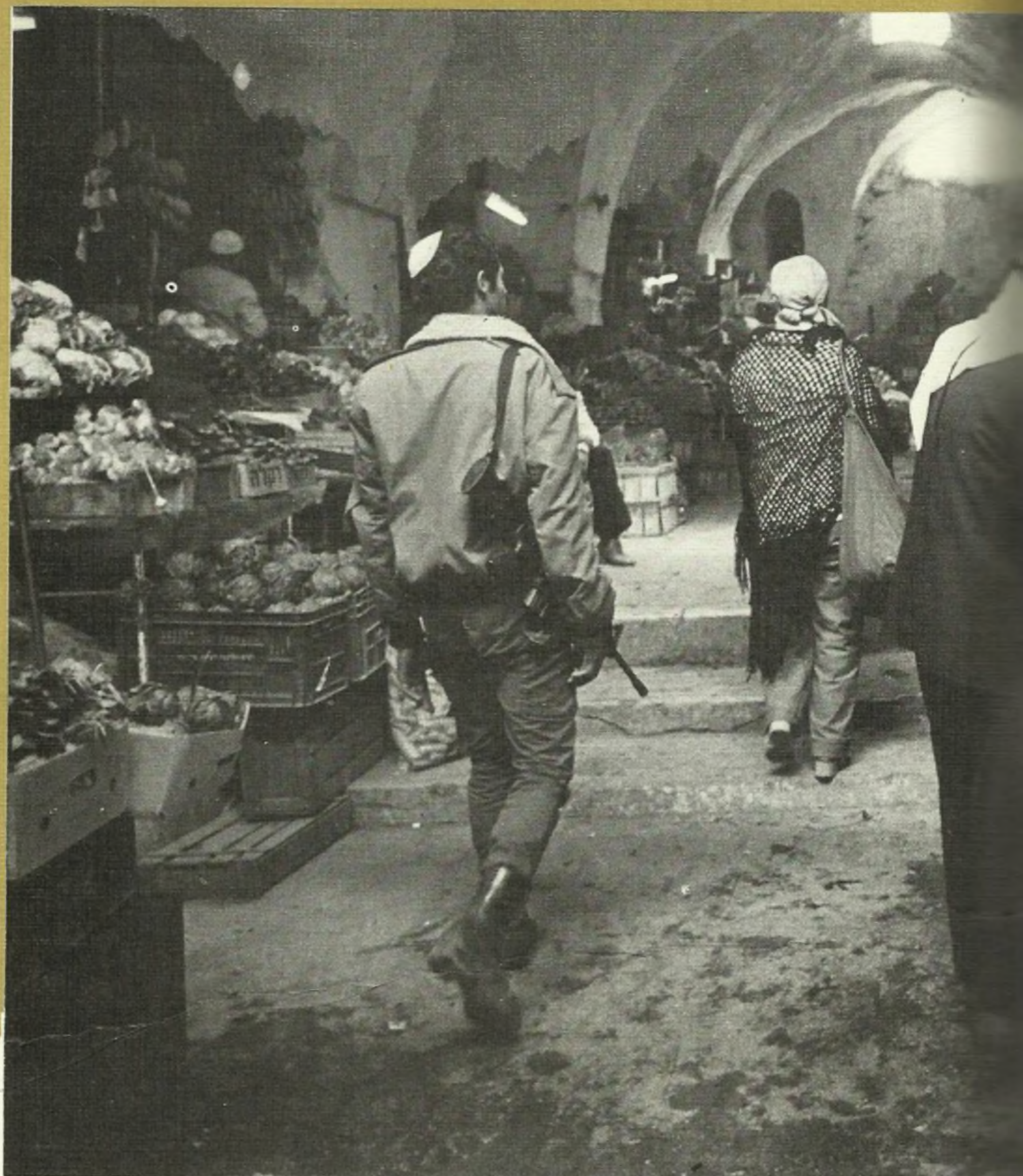






في عام ١٩٤٨ احتل الصهاينة القسم الجديد من مدينة (القدس) وفي عام ١٩٦٧ ، احتلوا المدينة بكاملها ، مع ما احتلوه من الاراضي المتبقية من فلسطين .

والفلسطينيون منذ ذلك التاريخ في ثورة مستمرة ضد هؤلاء الغزاة ، وما زالت مدينة (القدس) تكافح وتعاني ، وتقدم الضحايا تلو الضحايا ، تأكيداً على عروبتها ومن اجل ان تتحرر ، هي والبلاد جميعاً ، من نير الاحتلال الصهيوني .





دار الحرية للطباعة ـ بغداد

السعر ... سًا